ما وراء الواقع

ما وراء الواقع

رواية

إبراهيم عبدالجليل الإمام

ما وراء الواقع

اسم الكاتب: إبراهيم عبدالجليل الإمام
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 2018 / 23017
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 40 – 8

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

متذمر

من الصعب تحديد متى وقع ذلك .. ولا ما هو السبب في وقوعه .. لكنه وقع على كل حال .

حاولت إعادة شريط الذاكرة لأيام كثيرة سبقت وقوع تلك الظاهرة .. لم أجد في ذلك الشريط ما يمكن اعتباره سبباً وجيهاً أو مباشراً أو حتى سبباً غير وجيه ولا مباشر في حدوث ما حدث .. على الرغم من أني استعنت بذاكرة إضافية متمثلة في الأصدقاء للأحداث الوجيهة .. واستعنت بالأهل في ما يمكن اعتباره مباشراً .. لكن كانت النتائج غير مرضية .. بل يمكن أن تطلق عليها مخيبة للآمال .

يقول أحدهم .. لابد أنه فيلسوف أو ما شابه فكثيرما اقتبس رواد مواقع التواصل الاجتماعية أقواله .. فهذا سبب وجيه – على فكرة – لاعتباره فيلسوفاً او ما شابه .. إذا أردت الدقة فهذا القول بالذات قد قمت بمشاركته بنفسي عدة مرات على صفحتي .. وأرجو أن لا أكون قد أزعجت قائمة الأصدقاء بعدد مرات مشاركته .. فكلما وصلني عبر صفحة أحدهم إلا قمت وسارعت بمشاركته .. لأكتشف بعد وقت إني قد قمت بذلك في مرة سابقة بل مرات .

هذا القول الذي أتحدث عنه هو : لا تنتظر نتائج مغايرة في حال استخدمت نفس الطرق أو الوسائل .

أرجو أن يكون نقلي صحيحاً أو قريباً من الصحة .

وعملاً بهذا القول كان علي تغيير طرق بحثي عن المشكلة التي أنا بصدد الحديث عنها .

هل قلت لكم إنها ظاهرة .؟ .. ها أنا اكرر القول لمن فاته ذلك .

حدث ذلك ذات مساء ..

بعد عودتي من المحل المجاور لبيتي .. في الحقيقة ولمزيد من الدقة كان المحل المجاور لبيتنا مغلقاً فاضطررت للذهب لمحل أبعد .. وأثناء عودتي بعد أن اشتريت الحاجيات والأغراض التي من أجلها تجشمت هذا العناء .

أحسستُ بشيء غريب .. سمعتُ صوتاً هامساً .. يقول :

- بس بس بس .

تنبهت حواسي كلها .. ابطأت من سيري .. لم تتوقف البسبسة الهامسة .. بل أنا من توقف تماماً .. تلفتُ حولي .. لا أحد بالجوار .. بل كان الشارع خالياً .. فقط شابان يقفان في أقصى الشارع تحت عمود الكهرباء المطفأ .. يتهامسان عن شيء ما .. بالتأكيد ليسا هما مصدر هذه البسبسة .

واصلت السير نحو البيت .. لكن البسبسة لم تتوقف .. إذاً الأمر ليس تهيأت كما حاولت إقناع نفسي به .. كما أن الشابين غادرا العمود المطفأ لتنفيذ ما تهامسا عليه .. سرتُ خطوات أخرى .. توقفت مرة أخرى بعد أن سمعت بوضوح أحدهم يهمس قائلا :

- تباً لم تعد الحياة تطاق .

تلفتُ من جديد .. فالأمر تجاوز البسبسة والشك .. صار يقيناً أن أحدهم يتحدث بجواري دون أن أراه .

تذكرتُ هاتفي .. تفقدته كان في وضع السكون والخمول .. إذاً فليذهب هذا الاحتمال إلى الجحيم .. هناك من يبسبس ويتذمر من الحياة..

لم يكن بالجوار سوى قط .

انتصب شعري هلعاً وفزعاً ورعباً لاحتمال أن يكون هو صاحب هذه البسبسة والتذمر من الحياة .

تذكرتُ كل ما أعرفه عن الجن وتقمصهم أجساد القطط .. انطلقت لا ألوي على شيء ..

سمعت قهقهة خلفي .

وصلتُ إلى البيت .. وقفت خلف الباب .. التقطت ما استطعت من أنفاس .. بعد أكثر من دقيقة استطعت ضبط تنفسي كما كان .. المشكلة أن الاضطراب كان بادياً على وجهي .. يمكنني رؤية ذلك دون الحاجة لمرآة .. فشلت محاولاتي لإخفاء ذلك .. في الحقيقة هي محاولة واحدة وكانت فاشلة .. وضعت الأغراض التي خرجت من أجل جلبها في المطبخ .. استعذت بالله من الشيطان الرجيم كثيراً .. أكثر مما تتصور .

ما الذي يجري يا ترى ؟

******

بيت واهن

حاولت نسيان الأمر .. فالنسيان دواء لا يمكن صرفه من الصيدليات .. لو كان كذلك لصار الصيادلة أغنى الناس .. أعتقد أني نجحتُ إلى حد ما في ذلك .. إلى أن صدرت أوامر جديدة بشراء بعض الأغراض المستعجلة للبيت .. تذكرت قط البارحة قلت محتجاً :

- تباً ... إنه نفس موعد البارحة .
- ماذا قلت ؟
- هل من الضروري شراء هذه الأغراض الآن .. ألا يمكن إرجاء الامر إلى الصباح .

هناك أشياء لا يمكن تأجيلها ولا تأخيرها .. من بينها الموت .. فحين يحين موعده لا يمكن تأجيله ولا يقبل استجداء ولا تخاذلاً .. كذلك طلبات البيت .. لا يمكن تذكرها إلا في أحرج الأوقات .. كما إنه لا يمكن تأجيلها ولا حتى المماطلة في تنفيذها .. كما إنه لا يمكنك الاعتراض بصوت عالٍ على ذلك ..

يختلف الموت عما سواه انه يأتي مرة واحدة في العمر بينما طلبات البيت قد تسرع بقدوم هذه المرة اليتيمة .

- يا للبؤس .

هذا ما قلته لنفسي طبعاً .

خرجتُ على مضض .. تذكرتُ همس وبسبسة البارحة .. عدلتُ عن الذهاب من نفس ذلك الشارع حتى لو كلفني ذلك الذهاب لمحل أبعد .. فأعصابي لا تتحمل .. كما أن انهيارها الآن لن يكون في صالح أحد خصوصا أنا .. لنؤجل أمر انهيارها لوقت آخر ولمكان أفضل .

عدت إلى البيت محملاً بالأغراض .. لا همس ولا بسبسة ولا أحد يشكو من الحياة .. ولا حتى قهقهة .

بدأ الشك يساورني ويحاصرني ..

هل ما حدث البارحة حدث حقيقي أم هو محض خيال وأوهام ؟

لكن تلك الليلة كانت تخبأ لي أمراً آخر .. في وقت آخر ومكان آخر.

حدث ذلك بعد أن خلدنا للنوم .. جفاني كعادته .. يمكنك إضافة ذلك لقائمة الأشياء التي لا يمكن التحكم فيها مثل حركة الجفون ودقات القلب والتنفس .. لكن هذه تتميز عن غيرها أن الصيدلي يمكنه أن يجلب لك النوم .. فالنوم مضغوط عنده في أقراص صغيرة .. يمكنك استجلابه واستحلابه بتناول قرص أو أكثر من الحبوب المنومة .. ولا ينسى – الصيدلي- تذكيرك بأنها طريقة سيئة لجلب النوم .. مضرة للجسم ولا ينصحك بها .. يقول كل ذلك وهو يضع أموالك في درجه المكتظ .

كنتُ وحدي الذي يعاني الأرق .. زوجتي تغط في نوم عميق تحسد عليه .. الظلام دامس كالعادة .. الأجواء مهيأة لنوم عميق مصحوب بأحلام جميلة ..

لكن أنّا لي ذلك .. لا أعلم كم كان الوقت حين وقع ذلك .

سمعت خشخشة .

أسختُ السمع .. تأكدتُ أني غير واهم .. هي خشخشة شيء ما .. السؤال الأهم من الذي يحدث هذه الخشخشة ؟ .. ولماذا الان ؟

تكرر الأمر عدة مرات ..

- هذا الخيط يحتاج لتدعيم ..

هذه الجملة لم تكن من زوجتي .. فلا تزال نائمة إلى جوري .. هو بالتأكيد لم يصدر مني .. إنه من صاحب الخشخشة .. هذا ما لا شك فيه .. فمن يكون ؟

تعوذت بالله من كل الشياطين .. قرأت آيات كثيرة من القران ..

ما الذي يجري لي ؟

تلاشى الظلام .. فرت العتمة .. حدث هذا لبرهة واحدة .. لا أعلم كيف يمكن قياس البرهة .. لكنها أقل من ثانية حسب ما استطيع قياسه .. ليس هذا فحسب ما حدث .. بل عرفتُ صاحب الخشخشة :

إنه عنكبوت في سقف الحجرة يقوم بإعادة إصلاح شباكه .

******

شك وريبة

طبعاً لن تفلح كل أقراص النوم في جلب دقيقة واحدة منه الآن .. لكني نمت على كل حال .. بطريقة ما .. ربما فقدت الوعي أو ما شابه .. المهم أن زوجتي عانت كثيراً في إيقاظي في الصباح .. اضطرت لاستخدام الماء لأول مرة .. قالت لي أنه انتابها الرعب من طريقة شخيري .

أول ما فعلته بعد استيقاظي بفعل الماء البارد هو النظر لسقف الغرفة .. لذلك الركن الذي رأيت فيه العنكبوت البارحة .. كان هناك نسيج .. لم يعد الأمر قابلاً للشك ..

لاحظت زوجتي ما أنا فيه من تأمل ذلك الركن القصي من سقف غرفة نومنا .

قالت :

- بالأمس فقط قمت بتنظيف كامل البيت .. أنا متأكدة من أنه لا وجود لهذا النسيج مساء أمس .

غادرتْ الغرفة بغضب واشمئزاز من نسيج العنكبوت طبعاً .. عادت تحمل مكنسة ولا تزال ملامح الغضب والاشمئزاز كما هي .. كانت أقرب إلى فرسان القرون شاهرة مكنستها ..

تطاولت على أصابع قدميها لتنال من النسيج في ركن السقف .. صحت فيها فجأة أن لا تفعل ..

توقفت في آخر لحظة .. كادت أن تطيح بالنسيج الوليد .. طبعاً لا تسألني عن السبب .. فأنا أيضاً أجهل ذلك .. المهم أنها أطاعتني لسبب أجهله .. واصلت التحديق في النسيج .. كنتُ كمن ينتظر سماع استغاثة ربة البيت .. أعني السيدة العنكبوت .. طال انتظاري دون أن أسمع شيئاً .. تشكلت على وجهها – زوجتي - علامات الاستفهام مخلوطة بعلامات الاستغراب الممتزجة بالحيرة .. قالت :

- ما بك لست على ما يرام .. منذ أول أمس .
- لا شيء .. يبدو أني مرهق .

إنه الجواب المثالي في مثل هذه الحالات .. الأمر ليس وهماً .. شيء ما يحدث لي .. كانت نظراتها لي فيها حيرة وشفقة .

******

لا اعتقد أن عاقلاً يمكنه أن يصدق هذا .. لذلك لم اخبر أحداً بما جرى لي .. حتى زوجتي لم أخبرها حتى لا تظن بعقلي الظنون .. كتمتُ الأمر .. لعل الأيام تفصح عن جديد .. مؤمناً بالمثل القائل : السكوت عن البلاء أحد أسوأ طرق التخلص منه ..

على الرغم من قناعتي أن الكتمان ليس بالأمر الحسن دائماً .. ففي الافصاح راحة أحياناً .. لكني أثرت السلامة بالكتمان .

ذلك اليوم كنتُ مدعو لحضور وليمة عرس أبن أحد الأصدقاء .. دخلتُ لدورة المياه لأتجهز لهذه المناسبة بحلق شعري وتهذيب ذقني وأخذ حمام منعش .

كنتُ واقفاً أمام المرآة أضع اللمسات الأخيرة على ذقني .. أزيل عنه ما شذ من شعرات .. هممت بالخروج عندما سمعت حركة خلفي .

تجمدت مكاني لأتبين الأمر .. سمعتُ وشوشة بين أثنين .. أحدهما يقول لرفيقه :

- هذا المكان مناسب .. هيا يمكنك القاء نظرة .

سرت قشعريرة في سائر جسدي .. اعتقد أن شعر رأسي قد انتصب كذلك .. لكني لا استطيع ان اجزم فلم اتأكد من المرآة التي كنت اقف امامها لارتباكي .

لا شك أنه يتحدث عن هذا المكان ! .. فمن الذي يقوم بمعاينته ويحاول إقناع رفيقه بذلك ؟..

أسخت السمع .. قال الآخر بصوت أكثر نعومة من صاحبه :

- صدقت مكان رائع .

يبدو أنه لمحني واقفاً فأضاف :

- أرى أحدهم يقف هناك في بلاهة .. ألا تخشى منه ؟

يبدو أن هذا الموصوف بالبلاهة هو أنا !.. التفت لأرى من ذلك الذي تجرأ على نعتي بهذا الوصف .. لم أجد أحداً بطبيعة الحال ..

رفعت رأسي للسقف .. لعله عنكبوت آخر يحاول البحث عن مكمن مناسب لنصب شباكه وإقامة بيته وتأسيس أسرته ..

كانت أركان السقف الأربعة خالية .. نظرت إلى فتحة تصريف المياه ..

كانا هناك !

صرصاران .. يبدو أنهما زوجان أو عاشقان يبحثان عن موطن .. نصفهما الأعلى يبدو بارزاً من شقوق فتحة التصريف .. قرناهما تبحث وتتحسس المكان في سرعة غريبة .. التردد بادٍ على محيا أحدهما إن كان للصراصير محيا .. لكنه تشجع بعد أن خرج رفيقه بكامل جسده الممشوق .. حث رفيقته قائلاً :

- هي أسرعي .. قبل أن يتفطن لك هذا الأبله فيهاجمنا .

تباً لهما .. إنهما يصران على وصفي بالأبله .. لكني لم أحرك ساكناً .. اكتفيت بالمراقبة .. خرجت أنثاه من الشق .. أسرعا للاختباء خلف التواليت .. سمعت همسهما :

- ما رأيك بالمكان ؟
- يبدو جميلاً ورحباً .. لكن ..
- لكن ماذا ؟
- يبدو نظيفاً جداً .. وهذا غير مناسب لنا كما أخشى أن أهل هذا المكان من عشاق المبيدات .

- لا تخشي شيئاً يا عزيزتي .. يمكننا المغادرة في حال شعرنا بالخطر .. نكمن في المجاري حتى يزول الخطر .. المهم أن لا تتوغلي بعيداً عن هذا المكان ..

أضاف في مرح :

- كم هو رائع يا عزيزتي .. أليس كذلك .
- نعم لولا نظافته الزائدة .

هذه شهادة ستسر بها زوجتي حتى لو جاءت من عائلة صراصير فالفضل كل الفضل ما شهدت به الأعداء .. يبدو أنها – الصرصارة - مرتابة بعض الشيء لذلك قالت :

- ألا توجد فتحات أخرى يمكننا الهروب منها ؟
- لا أعلم .. سنكتشف ذلك لاحقاً .. دعينا نحتفل الآن بهذه المناسبة ولكل حادث حديث .
- لا تنسى ما حدث لنا من قبل .. بالكاد نجونا ..
- لم تكن المبيدات هي المشكلة .. فهذا خطر تمكنا من التعامل معه .. لكنها الأحذية اللعينة .. انظري هناك .. يبدو أنه المرحاض .. هيا اسرعي لنلقي نظرة .

لسبب أجهله تركتهما وخرجتً .. لم يكن بي طاقة لسماع غناءهما ومتابعة رقصهما .

الأمر خطير ليس على الصرصار وصرصارته الفرحان العاشقان .. بل على عقلي الذي لم يستوعب هذا التغيير.

حيرة

مرت ساعات النهار..

لم استمتع بالوليمة على الرغم من فخامتها .. لأول مرة أكتشف العلاقة بين المعدة والعقل .. فهذا يؤثر في تلك وتلك لا تستمتع بشيء من متعها في حال انشغال ذلك بشيء ما .

لم أعد افكر في الأمر من ناحية كونه حقيقة أم خيال .. الآن تغلب جانب اليقين على الشك .. أنا على يقين لا يتزعزع أن ذلك المتذمر من الحياة كان ذلك القط الذي مررت بجواره في الشارع .. أما الذي ينوي إصلاح الخيط فلا ريب إنها هي السيدة العنكبوت ..

هناك شيء ما حدث لي .. ما هو بالضبط ؟

أعلم كما يعلم أي طالب حتى لو لم يكن مجتهداً أن الصوت ينتقل من فم المتكلم كموجات .. تنتشر في الهواء تلتقطها أي أذن تقع في مجال تلك الموجة .

طول هذه الموجة السمعية يتراوح ما بين ٢٠ هيرتز إلى ٢٠٠٠٠ هيرتز.. لازلت أذكر الأرقام جيداً.

ببساطة أن أي موجة سمعية لا تقع بين هذين الرقمين لا يمكن سماعها بالأذن للإنسان الطبيعي .. ضعف السمع وقوته يعتمد على ما يمكن للأذن أن تلتقطه .. فصاحب السمع المرهف يمكنه التقاط الموجات إبتداءً من أول الـ ٢٠ هيرتز.. أما ثقيل السماع فبحاجة لتقوية الموجة سواء بالصراخ أو تكبيرها عبر الأجهزة المخصصة لذلك ..

ما يحدث لي أني الآن ألتقط موجات أخرى قد تكون أقل من المعدل الطبيعي للإنسان أو أعلى بكثير وربما كلا الامرين .. وهذا يحدث في وقت قصيرة - ولله الحمد - لو كان الأمر غير ذلك لربما أدى للجنون .. بل سيؤدي حتماً للجنون .. فالاستماع لخواطر قط أو لأشعار العناكب أو لأغاني الصراصير ليس مسلياً ولا ممتعاً .

على فكرة هذه ليست ميزة يمكن أن يتباهى به المرء بين رفاقه .. بل معضلة عليه أن يتخلص منها قبل ان تؤدي به إلى الجنون .

هذا أقرب تفسير علمي يمكنني أن أشخص به الحالة دون استشارة طبيب ولا الاستعانة بخبير..

ما أفكر فيه طيلة تلك الساعات هو سبب ما أنا فيه الآن .

السؤال الأهم الذي يلح عليّ الآن هو:

كيف يمكنني التخلص من هذه المعضلة ؟.

مر وقت دون أن أصل أو أجد شيئاً يمكن الاعتماد عليه كسبب لما يحدث لي ..

أعدت شريط حياتي يوم الحادثة .. لم أجد ما يمكن أن يرقى لسبب يجعلني أتمكن من .....

توقفت عن التفكير بعد أن فشلت .. نسيت الأمر.. الانشغال بأمور الحياة القاسية سبب كافٍ لتنسى اسمك..

لكن ما أن حل المساء بيننا حتى تذكرت مصيبتي .. حاولت تشخيص ما يحدث لي ..

******

هذه المرة خرجت من البيت دون الإعلان عن وجهتي .. من السهل تفسير نظرات زوجتي لي .. إنها مرتابة .. وأنا بالتأكيد سبب ريبتها .. لكنها تحاول الوصول لمعرفة سبب ما أنا فيه دون طرح اسئلة .. للنسوة طرقهن على كل حال .. أرجو أن لا يذهب تفكيرها بعيداً .

مررتُ بذات الشارع الذي وقعت لي فيه المشكلة لأول مرة .. يقال أن المجرم يعود لمكان الجريمة .. ربما ليتأكد من اتقانه لعمله أو ليرى أثر ووقع جريمته في الناس .. غالباً ما يكون ذلك سبباً لوقوعه في براثن الشرطة .

أما سبب عودتي للمكان واختياري لنفس الزمان هو محاولة اكتشاف السبب .. ووقوعي في براثن الحقيقة .

كانت العتمة تضرب أطنابها على كامل الشارع .. مصباح يتيم أمام محل المواد الغذائية وحده متكفل بمواجهة كل هذه العتمة على طول الشارع .. نفس الشابين يقفان في نفس المكان .. متكئان على نفس عمود الكهرباء المطفأ .. يتهامسان في أمر ما .

وقفتُ في نفس المكان الذي سمعت فيه البسبسة الهامسة والقهقهة الشامتة ..

بحثت عن القط .. أذكر أنه كان أشقر الفروة .. لا أثر له .. بل لا أثر لأي قط على غير العادة .. على الرغم من أن براميل القمامة مليئة حد الفيضان .. لكن لسبب ما غابت القطط الليلة عن المشهد ..

للقطط مشاكلها التي تشغلها .

وصلت إلى آخر الشارع دون طائل ..

عدت أدراجي .. وقفت في نفس النقطة .. لا جديد .. كررت الفعل مرة أخرى .. يبدو أن الشابين المتهامسين ارتابا بي فقرر التوقف عن التهامس ومغادرة المكان ..

عدتُ بدوري إلى بيتي تملأني الحيرة ..

لا تزال نظرات زوجتي تفيض ريبة وشكاً .. للأسف لا يمكنني التحدث بما يشغل ذهني الآن .. ربما في وقت لا حق ..

فتحت جهازحاسوبي لأبحث في الشبكة العالمية عن هذه الظاهرة .. وبعدها سأتفرغ للبحث عن اسبابها .. ربما سيعينني ذلك على الوصول بسرعة لحل قبل ان اصاب بلوثة او انهيارعصبي .. لا أعتقد أني لي القدرة لتحمل نظرات زوجتي المتشككة ..

قبل الشروع في البحث في الشبكة .. عليّ أولاً تشخيص الحالة لأتمكن من البحث بشكل صحيح ..

فما الذي يجري لي بالضبط ؟

خلف إجابة هذا السؤال يكمن الحل ..

******

سيجار كوبي

اتصلت بصديقي " ميم" سأرمز له بهذا الرمز فهو ليس حرفاً من اسمه بل صفة من صفاته .. لن أذكر هذه الصفة كذلك .

بعد اختصار التحايا والسلام طلبتُ منه أن نلتقي في أقرب فرصة ممكنة :

- لدي مشكلة وأرغب في استشارتك فيها .. نلتقي في المقهى .

انهيتُ المكالمة .. هذه الطريقة هي الوحيدة التي تجعله يترك كل شيء ويسارع لعقد اللقاء .. فالفضول منبوذ كما يحلو للبعض وصفه .. أما بالنسبة لصديقي ميم فالفضول قاتل مميت ..استغرب كيف استطاع أن يعيش كل هذه السنوات دون أن يقتله .. يا له من محظوظ !.

قد تسألني عن سبب اتصالي به تحديداً دون غيره من الأصدقاء .. ببساطة لا أدري .. فقط شعرت أن علي إخبار أحدٍ بما يجري لي .. المهم أن لا يكون هذا الأحد زوجتي في هذه المرحلة المبكرة من المشكلة .. ربما يحين دورها في مرحلة لاحقة بعد معرفة المشكلة فقد تساعد في علاجها إن كان لها علاج .. أما الآن فأخشى ما أخشاه أن تتعقد الأمور .

لم يكن أمامي خيار أفضل منه .. كما أن فضوله يجعله يبحث لي عن سبب – يحاول أن يكون مقنعاً - لما أنا فيه على الأقل .. فهذه الميزة

كما يحلو له وصفها تجعله أكثر حرصاً حتى مني لمعرفة كنه ما يجري لي .. يكفيني أن أشعر أن هناك من يهتم لمصيبتي حتى لو لم يجد حلاً لها .

التقينا بعد ساعة من إنهاء المكالمة .. جلسنا في مقهى قريب من البيت .. لم تعد له طاقة للصبر أكثر.. قال حتى قبل أن تأتي طلباتنا :

- شغلت بالي .. ما الذي طلبتني من أجله ؟.

كان متحمساً كعادته .. علامات الحيرة مرسومة على جبينه .. توقعت أن يسمعني فاصلاً من التقريع قبل الشروع في الحديث عن المشكلة التي استدعيته على عجل من أجلها .. لكنه وهذا من ميزاته أيضاً نسي كل شيء عن انهائي للمكالمة معه بشكل فظ ومستفز.. كان مشغولاً بالفعل ويتوقع إني واقع في كارثة ما .. لم يكن يتصنع .. فهو لا يحسن تقمص إلا هذا الدور .

- لا أدري كيف أبدأ .. لكن الأمر حدث من يومين أو ثلاثة .
- ما الذي حدث بالضبط ؟

هنا وقف عامل المقهى حاملاً كوبين من القهوة .. كانت هذه المقاطعة أمر لا يطاق بالنسبة له .. قلتُ بعد برهة من انصرافه :

- أبحث عن تفسيرٍ لما يجري لي .. الأمر ليس طبيعياً بتاتاً .
- تكلم قبل أن أخنقك .

استجمعت ما تفرق من شتات أفكاري وقلت قبل أن يخنقني :

- هل تؤمن بالمس ؟
- المس ؟

- نعم .. هل في سؤالي ما يريب ؟
- من الغبي الذي ينكر ذلك ؟
- هذا الغبي لا ينكر ذلك .. لكنه فقط يتساءل عن كيفية معرفة الممسوس .

بدت الحيرة تتلاشى من ملامحه .. تناول كوبه .. حدثني مطولاً عن علاقة الجن بالإنس والكثير من الأمور التي لا أجهلها في هذا الشأن .. قاطعته قائلاً :

- في الحقيقة لم أطلبك على عجل للحديث في أمور أعرفها .. بل ما طلبتك لأجله هو عن علاقة المس بباقي الكائنات .
- لم أفهم ما ترمي إليه .. أفصح قبل أن افقد صوابي .
- ما اعرفه ان الممسوس قد يتكلم الجني بلسانه بكلام لم يعهده منه الناس .
- نعم .. هذا ما يحدث غالباً .. فالجني يتقمص شخص الممسوس ويتحدث بلسانه .. لكن

قاطعته قائلا :

- جميل .. هذا ايضا لا اجهله .. سؤالي هو : هل سمعت بقطٍ ممسوس أو صرصار مثلاً ؟

ارتسمت على محياه أسوء علامة تعجب يمكنك أن تراها .. لو كان مدخنا لكان عليه أن يشعل سيجاراً كوبياً فاخراً الآن .. قال بعد أن نفث سحابة دخان وهمية من دخانه الكوبي :

- أعلم كما لا يخف عن مثلك أن تلك الأمة يحلو لها الظهور على هيئة قط أو كلب أسود اللون أو حية سوداء .. أما الصرصار فلم أسمع بهذا من قبل .
- هل سمعت بقطٍ يتذمر من قبل ؟
- ماذا ؟
- هل سمعت صرصاراً ينشد قصيدة غزل ؟.
- تبا لك أيها الوغد .. ألهذا استدعيتني على عجل ؟
- هل سمعت عنكبوتاً يتحدث عن مشاريعه ؟

لم تعد له قدرة على التحمل .. كاد يهم بخنقي لولا أن ملامحي الجادة هي وحدها ما جعلته يتراجع .. أضفت قائلاً :

- هذا ما يحدث لي .. فجأة صرت اسمع شكوى قط يتذمر من الحياة .. وعنكبوتٍ يتحدث عن إصلاح بيته وتهيئته للصيد .. أما الصرصار فكان يغازل أنثاه دون حياء ولا خجل مني .

الاشفاق واضح على ملامحه .. بالتأكيد إنه يخصني بهذه النظرة .. لو كان يعلم انه سيواجه مثل هذه المعضلة لما أقلع عن التدخين .

- الأمر لا يقبل الهزل .. ليس لدي وقت لأضيعه في هراء كهذا .
- إذا لم أكن ممسوساً فما تفسير ما يحدث لي ؟

مزيد من البحث

غادرني صديقي م بعد أن سردت له كل ما جرى لي .. دون أن أغفل عن أي تفصيل .. شعرتُ بشيء من الارتياح .. في الفضفضة انفضاض للهم ولو إلى حين .. كانت خطوة موفقة إخبار أحدهم بما يجري لي .. على الأقل سيجد الآخرون ما يتحدثون به عنك في حال تطورت الأمور لما لا يحمد عقباه .

في اليوم التالي التقينا في المسجد .. أشار لي بانتظاره عقب الصلاة .. جلسنا بعد انقضاء الصلاة .. تهامسنا من جديد عن الظاهرة .. استبعد أي علاقة لما يحدث لي بالمس .. بل أكد أن هذه ظاهرة مختلفة تماماً عما يحدث للممسوسين .. لم يسمع بها من قبل .. شعرت بشيء من الارتياح .. أضاف أنه سأل بعض الضليعين في هذا الشأن ممن تربطهم به وشائج الصداقة :

- أكدوا لي أنك غير ممسوس حتى الآن .

صيغة الجمع تفيد أنه تحدث مع أكثر من شخصين .. أخشى أن تكون سيرتي الآن على كل لسان .. لاحظ توتري فقال مطمئناً :

- لم أخبرهم عنك طبعاً .. لا تخشى شيئاً .

كان يعتقد أنه بذلك يطمئنني .. الآن استطيع أن أحسد أولئك الممسوسين على الترف الذي ينعمون به .. على الأقل هم يعرفون مصابهم

.. ربما هم بحاجة لبعض الوقت للعودة لسابق حياتهم .. ربما المس أهون بكثير مما يمكن أن يكون قد ألم بي .

- ما تفسيرك لما يحدث لي إذاً ؟

فكر قليلا ليقول :

- إنك مصاب بشيء ما غير مألوف .

لو كنّا في مكان آخر لربما ضربته .. كتمتُ غيظي لضرورات المكان والمرحلة .. قلتُ :

- لا أعتقد أن هذه الإجابة شافية وتحتاج لكل هذا التفكير والتدبر.
- هممم .. لا أدري بالضبط .
- أرجو أن تكتم الأمر.. إياك أن تخبر أحداً .

لو كانت لدي ذرة شك واحدة في إمكانية تسرب الأمر للآخرين بواسطته لما حدثته به .. كما إني على يقين أنه لن يعدم وسيلة لمعرفة ما يحدث .. فالفضول سيكون السبب الوحيد للقضاء عليه .

يبدو أن تهامسنا قد طال .. لم نشعر بخلو المسجد من المصلين .. حاول القيم على المسجد تنبيهنا لذلك بطرق مختلفة غير مباشرة مثل النحنحة والحمحمة .. تطور بعد ذلك إلى التعبير بطريقة مباشرة مثل إطفاء الانوار وغلق النوافذ .. كل ذلك لم يفلح .. أخيراً اضطر لمصارحتنا بفجاجة بضرورة المغادرة .

مر يومان دون حدوث جديد ..

لم يتصل بي صديقي ميم .. كما أني لم أسمع تذمر القط الأشقر .. على الرغم من لقائي به أكثر من مرة متسكعاً بجوار برميل قمامة الجيران .. صحيح أنه كان ينظر لي بنظرات مريبة .. لكن هذا لا يعني شيئاً .. كما أني لم أسمع قصيدة جديدة للصرصار ولا تخوفات أنثاه .

- هل استقر بهما المقام في بيتنا ؟ ..

تفاقم

بعد استبعاد فكرة المس الشيطاني .. حمدت الله كثيراً .. فبعض الشر أهون من بعض كما قال أحد الشعراء .. لكن هذا لا يعني انتهاء الأمر .. صحيح أنه مر يومان هادئان .. لكن هذا لا يمنع من البحث عن هذه الظاهرة ومسبباتها .. على فكرة لا تزال نظرات الريبة تلاحقني من قبل زوجتي .. إنها تشك بأمر ما .. لكنها لا تفصح .. أعلم أن صبرها سينفذ قريباً .. ابنتي كذلك لاحظت سهومي على غير العادة .. حاولت استدراجي لمعرفة ما بي .. هذا ملخص ما جرى بيننا .. للتذكير الحوار جرى باللهجة العامية وليس كما ورد أسفله :

- أبي ؟
- نعم بنيتي .
- فيما تفكر ؟ ..
- لا شيء .
- لكنك لا تبدو طبيعياً .
- وكيف يبدو الانسان الطبيعي ؟
- لا أدري ! .. لكنك لست على ما يرام .. هل أنت مريض ؟
- لا .. لا لست مريضاً .. هل أبدو كذلك ؟

اللعنة .. يبدو أني لا أسيطر على ملامحي كما ينبغي .. قالت :

- تبدو مشغولاً بأمر ما .

- نعم يا عزيزتي .. أنا مشغول بأمر ما .

بصعوبة رسمت ابتسامة .. خلتها تكفي لإقناعها بأني على ما يرام .. قلت ببراءة مصطنعة :

- هل أنتِ فقط من لاحظ ذلك ؟
- لا أعلم .. لكني سألت أمي فقالت لي لا تزعجي أباك فهو مشغول بأمر هام .

كنتُ على يقين بنظرات الريبة التي ترمقني بها زوجتي بين فينة وأخرى .. ها هي تحاول إبعاد الطفلة بطريقة ذكية .. قالت :

- هل تخطط لشيء ما تنوي مفاجأتنا به ؟

شكرتها في سري .. فقد أوحت لي بالجواب .. أشرت إيجاباً برأسي .. أضفت إشارة أخرى بسبابتي بأن الأمر سر بيننا وعليها كتمانه .. ابتسمت بخبث طفولي وأشارت لي إشارة مفادها " سرك في بير " .

أعلم أني تخلصت منها إلى حين .. لكني لا أعلم عمق البير الذي ستدفن فيه هذا السر .. عليّ التفكير في شيء يكون مفاجأة كما وعدتها .. المشكلة أن المثلجات وألواح الشيكولاتة لم تعد توضع في خانة المفاجآت للأطفال هذه الأيام .

كيف يمكن للإنسان أن يبدو طبيعياً وهو يمر بمثل هذه الظاهرة الغريبة المريبة ؟

جلستُ إلى حاسوبي .

أعدّت لي كوب من القهوة دون أن أطلب منها ذلك .. كانت رائحة القهوة منعشة ومغرية .. أعلم أنها رشوة صغيرة من صغيرتي لكنها مقبولة عل كل حال .. أنا بحاجة لاحتساء الكثير منها وربما قد اضطر للعودة للتدخين من أجل تفكير أكثر عمقاً في هذه المشكلة .

رشفت رشفة قبل أن أنقر على شبكة المعلومات للبحث عن تفسير لهذه الظاهرة .. لا بد أن أجد فيها شيئاً ما يفيدني ..ويزيل حيرتي .

مرت دقائق البحث سريعة .. اندمجت في تصفح عشرات المواقع بحثاً عن تفسير مقنع .. غصت كثيراً وعميقاً حتى بردت القهوة .. صيحة رعب وفزع انطلقت من مكان ما في البيت أخرجتني مما كنت غارقاً فيه .

إنها صادرة من زوجتي .. لكن أين هي الآن ؟

أسرعت في ارتباك لتبين الأمر .. أسرعت لدورة المياه .. ظننت انها هوجمت من قبل الصرصار الولهان وعزيزته المرعوبة .. كان توقعي خاطئاً ..

لم تكن في المطبخ ولا في غرف النوم .. لم اكن وحدي من يبحث عن مصدر صرخة الرعب التي لم تكن وحيدة بل تبعتها عدة صرخات اقل من الأولى .

أخيراً وصلت النجدة .

******

تفاقم .

كانت الصيحة قادمة من غرفة التخزين .. أما صاحبة الصيحة المفزعة فهي زوجتي العزيزة .. والسبب ببساطة هو ظهور الوزغ المعروف هنا للقاصي والداني باسمه الشهير "بوبريص" .

كان ملتصقاً على أحد الجدران .. تصادف دخول زوجتي للمخزن أثناء قيامه " البوبريص" بجولته المعتادة بحثاً عن رزقه أو عن أشياء أخرى لا نعلمها .

مشكلة أمة الوزغ - البوبريصات - هذه سوء اختيارها لمواعيد قيامها بهذه الجولات .. مما يسبب إرباكاً وفزعاً وصراخاً لجيرانها من الإنس .. وربما تصل أحياناً لحالات إغماء .

المشكلة إني وجدتها – زوجتي – جامدة في مكانها .. وبقايا صرختها تدوي في المكان .. أصبعها تشير إلى الجدار .. كان السيد "بوبريص" يتربع هناك بصفاقة دون خجل ولا حياء ولا خوف .. أخرجتها من غرفة التخزين بهدوء .. تنفست الصعداء .. استرجعت شخصيتها قبل حدوث اللقاء .. كان هذا هو الجزء السهل من المهمة ..

أما الجزء الأهم والأصعب فيتمثل في القضاء على هذا الصفيق ومعاقبته على جرأته .. لن تهنأ زوجتي حتى تراه جثة هامدة .. وبالتالي لن أهنأ أنا ولن أرتاح حتى أرتكب هذه المجزرة .. سألتها عن السلاح البتار لمثل هذه المجزرة :

- أين الشباشب ؟

لسبب ما كانت الشباشب أفضل وسيلة لمحاربة أمة الوزغ .. ناولتني شبشبين ..أحدهما أسود اللون والآخر بني اللون .. اخترت الأسود .. مفضلاً إياه على البني .. اعتقاداً مني لشراسته وقوته فهذا ما يوحيه لونه القاتم بينما رفيقه البني فلا يملك هذا الايحاء ..

بحذر محاربي الكونغوفو وخفة مقاتلي النيينجا عدتُ لغرفة التخزين .. سرتُ على أمشاط قدمي ..

ملاحظة // يفترض أن تكتب أمشاط بالتثنية لا بالجمع ولكن الجميع يكتبونها هكذا فنرجو المعذرة .

وقفتُ في وسط الغرفة .. ارتفع معدل الأدرنالين في أوردتي وشراييني وتكاد شعيراتي الدموية تنفجر من قوت سريانه وتدفقه فيها.. .. تحفزت أكثر.. هذه المعركة مهمة لسبب ما .. لن تقبل زوجتي التعادل أو التراجع .. النصر فقط هو الخيار المتاح لي .. هل يعرف هذا البوبريص هذا الأمر؟ .. فليخبره أحدكم إذاً .

أزحتً شيئاً ما بقدمي كان عائقاً في طريقي .. لا يزال البوبريص ملتصقا بأعلى الجدار.. تحرك بعد أن شعر بي .. غيّر من وضعيته .. هو الآن في مواجهتي .. تحركت عيناه في كل الاتجاهات .. شهرتُ الشبشب الأسود في وجهه .. غيّر من وضعية ذيله فقط .. هذا كل ما فعله .. ربما لا يعلم ما يراد له وهذا عيب أمة الوزغ للأسف .. استهتارها سيكون سبب في فنائها .

صوبت الشبشب الأسود .. دققت في التصويب .. هذا النوع من الصراع يحتاج لضربة واحدة لتنهيه وإلا فاعتبر نفسك قد خسرت جولة مهمة .. اطلقته بسرعة لا يمكنني حسابها ولا يمكنه تفاديها .. انطلق نحو

الهدف .. سقط البوبريص في وسط الغرفة .. يبدو أني نجحت في اصابته .. ابتسمت بينما ارتبك خصمي من هول المفاجأة .. قذفت الشبشب البني لأقضي عليه قضاءً مبرماً ..

- أين هو؟

بحثت عن جثته .. وجدت ذيله يتلوى ألما وسط الغرفة .. اكتشفت أن لم اتمكن منه كامل .. أخطأته هذه المرة .. لا أثق في الشباشب البنية في مثل هذه المعارك .. أسرعت بتناول الشبشب الأسود لكن خصمي كان قد تمالك نفسه واستعاد تركيزه .. فر البوبريص من المواجهة تاركاً ذيله يلفظ أنفاسه بحركة بندولية متوترة .

- تباً .

أزحت عدة صناديق بحثاً عنه ..لا أثر لهذا الجبان.

- هل قتلته ؟

كان هذا السؤال من زوجتي .. التي استرجعت روعها وعادت لتشهد الوقيعة الحامية الوطيس .. ولتتأكد من القضاء على عدوها الأول.

- أصبته .. لكني لا أعلم إن كان قد مات .. ها هو ذيله في أرض المعركة.

الامتعاض بادٍ على قسماتها من النتائج المبهمة للمواجهة .. هي من ذلك النوع الذي لا يرضى بأنصاف الحلول .

- الذيل وحده لا يكفي .. لابد من القضاء عليه كاملاً .

لم تكن تلك أمنية تمنتها ولا رجاءً رجته .. بل أمراً نافذاً يجب تنفيذه فوراً .. بحثتُ من جديد .. أزحتُ عدة أشياء اعترضتني .. النتيجة كانت صفراً .

لكني سمعت أنيناً خافتاً .

******

مزيد من التفاقم

لم يكن الأنين صادراً عن زوجتي .. ليست هذه طريقتها المثلى للتوجع .. لا تزال واقفة هناك تسد عليّ مدخل المخزن .. في رسالة واضحة مفادها : لا خروج دون جثة البوبريص اللعين .. موقفي يزداد حرجاً .

أين مصدر هذا الانين ؟ .. أسخت السمع :

- هل أصبت ؟
- كح كح كح .. آآه .

سعال وأنين خافتين كانا رداً على السؤال .. يبدو أن مصدرهما واحد .. إنه هو : "البوبريص" اللعين .. لم يكن وحده وهذه طامة أخرى .. أجاب عن السؤال :

- نعم .. فقدت ذيلي .. أأه .. كاد يصيبني .. كح كح .. آآه .

من خشونة صوته يمكن استنتاج أن خصمي كان ذكراً .. وأن أنثاه هي من يسأل عن نتائج المواجهة المباغتة .

- الحمد لله .. أين كانت اصابتك ؟ .. دعني أرى .. هذا المكان معتم .. سأحاول الوصول إليك .
- فقدتُ ذيلي .. آه كح كح .. لا يمكنني تغيير موقعي وإلا اكتشف مكاني .. كح كح .. آآآآه .

مزيد من السعال والألم .. أضافت أنثاه تحثه على المزيد من التحمل والتجلد :

- "اللي تخطى الراس تطبب .. هكذا تقول الحكمة القديمة .

يبدو أن أمة الوزغ تستعمل نفس أمثالنا .. بل ربما يكون هذا المثل خاص بها .. فهو يليق تماماً بأمة لا تأبه لقطع ذيلها .. فالذيل من السهل تعويضه :

- بعض الوقت كفيل بإصلاح الأمر .. الخطر دائماً يكمن في الرأس .. المحافظة عليه يعني حياة أطول .. كلما طال العمر كثرت التجارب والمغامرات .. الحياة بلا مغامرات لا تطاق .. وللاستمتاع بالمغامرة فأنت بحاجة لرأس سليمة .. هل نزفت كثيراً ؟

يبدو أن إناث أمة الوزغ كذلك ثرثارات .. لكن ثرثرتهن لا تخلو من الحكمة .. قال غريمي :

- الجو خانق .. لكن علي التحمل أكثر حتى يغادر هذا السمج .

من الواضح إنه يعنيني بهذا الوصف .. حسناً .. سنرى من السمج .

- ما الذي جعلك تظهر في هذا الوقت ؟
- إنها ذبابة .. كدتُ اصطادها لولا دخول تلك المتطفلة السمينة .

تباً له .. إنه يصف زوجتي بالسمينة .. الويل له لو سمعته .. استطرد قائلاً :

- كنت سأنقض عليها .. كح كح .
- ها انا قد وصلت .. دعني ارى ذيلك .
- آآآآآ هـ ..
- تحمل قليلاً يا عزيزي .. لقد نزفت كثيراً .. لكن لا خطر عليك .. أيام قليلة وينمو لك ذيلا بديل .. لا تجزع .
- كيف لا أجزع سأظل حبيس العتمة .. لا يمكنني الحركة بدون ذيل ..
- لا أحد هنا لتخجل منه سواي .. كما أن هذه علامة على شجاعتك ونجاحك في مواجهة إنسي جبار قاتل .

إنها تضيف لي أوصافاً جديدة .. كنتُ قبل قليل سمجاً والآن صرت جباراً وقاتلاً :

- تباً لكما .
- هسس .. هل سمعتي ما أسمع .

ران صمت ثقيل .. قطعه الذكر بسعال خفيف وآهة وحيدة .. قالت انثاه :

- لم أسمع شيئاً .
- لكني سمعته يقول : " تباً لكما " .
- إنه يعنينا نحن أليس كذلك ؟ .. كيف عرف أننا اثنين ؟.

******

لا تصالح

يبدو أن حالتي تفاقمت أكثر..

كانت مشكلة تكمن في البحث عن سبب ما أنا فيه من سماعي لما يحدث للكائنات المختلفة حولي .. لم أعد أسمع من الكائنات فقط .. بل صارت هي أيضاً تسمعني وتفهمني .. بل صرنا نتبادل السباب والشتائم .. قلتُ في عصبية وحدة :

- نعم ... إني أعنيكما .

بعد برهة سمعت همساً لم أتبينه واضطراباً .. يبدو أنهما بوغتا .. واصلا همسهما .. يبدو هذه المرة أنهما يتداولان الوضع الجديد بينهما .

- كح كح .. ماذا تريد منا ؟ .. ماذا فعلنا لتواجهنا بكل هذه الغطرسة .. كح كح .

لم أكن واهماً إذاً .. إنه ذكر البوبريص من تولي الرد مصحوباً بسعاله المنهك .. هذا يؤكد فرضيتي .. أني أسمع ما يقولان وهما كذلك يسمعان ما أقول .

- لأنكما انتهكتما حرمة بيتي .

- الأمر لا يستحق كل هذا العنف .

- أفزعت زوجتي وكاد يغمى عليها لولا لطف الله .. كيف تريدني مواجهة ذلك .. هل أرقص طرباً مثلاً .

تهامسا من جديد .. هذه المرة كان الرد من أنثاه :

- لا تنسى أننا نقوم بالقضاء على الحشرات الضارة وما أكثرها في بيتك .. اعتبرنا ضيوفاً .. لولا وجودنا هنا لما استطعتما العيش براحة .

- هذا لا يبرر إفزاعكما لزوجتي .. كما أن وصفكم لها بالسمينة سبب كافٍ لمحاربتكما ..هذا إضافة لوصفي بالسمج .. هل هكذا يتصرف الضيوف ؟

تداول من جديد انتهى بسعال قبل أن يتدخل الزوج لاهثاً :

- هلا عقدنا هدنة ؟

- هدنة ؟.. لم أسمع من قبل عن هدنة بين أمتينا .. كل ما كان بيننا هو عداء تاريخي مستفحل أنتم فيه السبب .

- لكل شيء بداية .. لتكن هذه أول اتفاقية بيننا .

- لنرى .. لكل اتفاقية شروط .. على من يخالفها أن يتحمل جريرة مخالفته .

- يبدو أنك ضليع في إبرام المعاهدات .

أعجبني إطراءه .. قال بعد سعلة خفيفة :

- أولاً توقف عن مهاجمتنا .

- شرط مغادرتكما المخزن .

تداول من جديد .. هذه المرة كان خالياً من السعال .. يبدو أنه بدأ يتعافى .. أجابت أنثاه .

- ما الضمان ؟ .. كما تعلم أن لكل عقد ضامن .

- كلمتي تكفي .
- هممممم .. نحن مضطرون للموافقة .
- هذا يكفل لكما حياة أطول .. على الأقل في مكان آخر أكثر أمناً .. هذه المرة أصبت ذيلاً .. المرة القادمة لن يهنأ لي بال حتى أرى جثتكما في سلة القمامة .. ربما قد أتركها وليمة للنمل ليوم أو يومين.

يبدو أن تهديدي أتى أكله .. فكان الرد سريعاً :

- حسناً كلمتك كافية .. دعنا نغادر بسلام .
- شرط عدم عودتكما ... كما أرجو أن تحملا هذا الإنذار لغيركما من أمة الوزغ .. هذا البيت خط أحمر.
- حسناً .. ستغادر الآن .
- قبل ذلك عليكم الاعتذار عن وصف زوجتي بالسمينة وإلا ...
- نحن نقدم بالغ أسفنا وعظيم اعتذارنا .
- هيا غادرا الآن .

جلبة في مكان ما .. خرج الذكر أولاً يترنح .. كان متأثراً بفقد ذيله .. على أثره خرجت أنثاه تنظر حولها في قلقل وتوتر .. تلاهما فوج من صغار الوزغ .. كل هذه العائلة كانت تكمن في مخزني !! .. ساروا في صف طويل .

خرجت قافلتهم من المخزن توجهت نحو بيت الجيران ..
سمعت صرخة هائلة .. تلاها سقوط شيء ما .

***

مزيداً من التفاقم

كانت تلك زوجتي .. لا يصدر مثل هذا الصراخ إلا منها .

لم أتفطن لوجودها .. يبدو أنها رأت وسمعت ما دار بيني وبين عائلة البوبريص .

أسرعتُ لإسعافها .. استفاقت بعد قرابة الساعة .. كانت نظراتها تحمل مع الريبة اسئلة كثيرة يجب أن أجد لها إجابات .. ليس هذا ما تريده بل على هذه الإجابات أن تكون مقنعة أيضاً .

لم يطل انتظارها .

ما أن استعادت عافيتها حتى شرعت في استجوابي :

- ما الذي يجري بالضبط ؟

حاولتُ التنصل من سؤالها .. لكني فشلت .. قالت :

- أريد تفسيراً لكل ما يجري .. أنت لستَ طبيعياً .. تقف قرابة نصف ساعة في المخزن دون أن تعير كلامي أي اهتمام .. دون حتى أن تلتفت إليّ .

- كنتُ أتربص بالبوبريص حتى أقضي عليه .. أليست هذه رغبتك ؟

يبدو أن إجابتي لم تكن شافية ولا مقنعة .. قالت في حدة :

- للقضاء على البوبريص لا يتطلب الامر أن تحدث نفسك .

- هل حدثتُ نفسي ؟

- الأدهى والأمر أنك لم تهتم لكل الملاحظات التي أشرت لك بها .

أعلم أنه يمكنها التسامح والتغاضي عن أي شيء إلا تجاهل ملاحظتها .. يبدو أني وقعت في محظور نجحتُ في تفاديه لسنوات عديدة بنجاح .. كنت اتوقع الوقوع في المحظور ذات يوم .. لكني لم أتوقع أن يكون ذلك بهذه السرعة .

- زوجتي العزيزة .....

فوجئتْ بالجملة السابقة .. مر وقت طويل على آخر مرة تسمعها مني .. ربما هذا ما زاد من حيرتها .. التفت يمنة ويسرى خشية أن يسمعنا أحد الأطفال .. واصلت قائلاً :

- إني أمر بمشكلة بل بمعضلة .. واحتاج لعونك للخروج منها .

ذاب عبوسها مع حرارة عباراتي كما تذوب الزبدة بفعل الحرارة .. حل محل الريبة شيء يمكن وصفه بالتعاطف المشوب بالخوف .. قالت : مشكلة ؟ ..

- نعم .. لم أكن أحدّث نفسي في المخزن .. بل أحدث البوبريص .
- البو... بوبريص ؟

تغيرت ملامحها .. غلب عليها الإشفاق الآن .. هي الآن جاهزة لتندب حظها العاثر بزوج مجنون يحادث بوبريصاً .. لو ضبطته يحادث حسناء لما كانت ردة فعلها بهذا السوء .. الغريب أنها سكنت وسكتت .. ربما لم تستوعب الأمر .. استثمرت لحظة السكون هذه قبل أن تهب العاصفة .

حدثتها بكل ما حدث معي منذ البداية ..

حتى محادثتي الأخيرة مع عائلة البوبريص وعقدي معهم هدنة مؤقتة .. لا أعلم ما إذا كان قراري بمصارحتها صحيحاً لكن هذا ما حدث .

صارت ملامحها أقرب إلى سيارة تعرضت لحادث سير مع دبابة .. اشفق عليها كثيراً فالأمر يصعب احتماله على أقوى الرجال .. فما بالك بامرأة .. على فكرة لم أخبرها بوصف البوبريص لها بالسمينة وإلا لحلت بي وبهم كارثة ستتحدث عنها القنوات الوثائقية كثيراً .

ربتت على كتفي .. هونت علي الأمر كثيراً .. بل بدت تفكر في حل قد يشفيني ولا يشقيني .. لكن عندما أخبرتها بما قاله صديقي انفجرت كبركان خامد :

- هل أخبرت أحداً قبلي ؟
- في الحقيقة .....

قاطعني البركان – زوجتي - قائلة :

- سيرتك الآن على كل لسان .. وأنا الآن آخر من يعلم .
- ثقي أنه لم ولن يخبر أحدا بذلك .

لم تستوعب أن يحفظ أحدهم سراً .. أكدت أن ذلك من سابع المستحيلات بل هو على رأسها .. كادت تلطم .. لكن احمرار وجهها وانعقاد حاجبيها يكفي للدلالة أنها اجتازت مرحلة اللطم .. هي الآن ما بعد تلك المرحلة بمراحل .

استرجعت هدوئها بصعوبة .. حاولنا معاً البحث عن سبب لما حدث .. سبب وجيه ومقنع يفسر كل شيء .

لكن دون جدوى .

مزيدًا من البحث

ذلك المساء انفردت بجاهز الحاسوب .. غادرت زوجتي لزيارة أهلها رفقة الأولاد .. كان الجو مناسباً للبحث بهدوء في شبكة الانترنت .

كان البحث مضنياً .. كنتُ كمن يبحث عن صيني بعينين ضيقتين في الصين .. الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في العتمة .. لكن ليس لي ترف الخيار.

بحثت عن الظواهر الغريبة التي تصيب الانسان .. قرأتُ عشرات الصفحات .. لم أعلم أن الانسان قد يصاب بكل هذه الأشياء التي تحمل اسماء لاتينية غريبة يستحيل حفظها .. استنتجتُ من بحثي الطويل المضني أن من لم يصب بإحدى تلك الظواهر يعد ظاهرة بحد ذاته تحتاج لدراسة .. أعداد خيالية وأرقام وأسماء وظواهر عديدة قرأتُ عنها .. لكن ليس من بينها ما أصابني ..

هل ستسجل هذه الظاهرة باسمي ؟ .

******

"Telepathy" .. إنه الاسم الذي اختاره أحدهم لظاهرة من الظواهر.. التخاطر عن بعد أو تبادل الأفكار أو انتقالها من مخ لآخر.. هذا أقرب ما وجدته وارتاحت له نفسي من بين كل تلك الصفحات الكثيرة التي قرأتها في تلك العجالة .

مشكلة هذه الظواهر أنها لا تخضع للبحث العلمي الدقيق فهي لا تتكرر بطريقة يمكن الاعتماد عليها في البحث .. ولم يجدوا وسيلة لرصدها والتربص لها .. هذا ما يجعل العلماء يعزفون عن إضاعة أوقاتهم في دراستها .. لكن الأمر يختلف كثيراً عند صانعي الأفلام .. فهذه الظاهر تحظى باهتمام بالغ ليديهم واستطاعوا استثمارها لحصد المزيد من الأموال .

مشكلة هذه الظاهرة أنها من شقين - طبعاً هذا حسب ما قرأت - فالبعض يشكون أن أفكاراً لهم تسرق من عقولهم !

وبعضهم يتذمرون ويصرون أن هناك من يزرع أفكاراً في عقولهم .. طبعاً هذا أخطر من سرقة فكرة من عقلك .

ليس هذا كل ما وجدته عن التخاطر عن بعد .. فقد وجدتُ قصة حدثت في زمن عمر بن الخطاب ﷺ حين توقف فجأة عن خطبة كان يخطبها ليصيح :

- يا سارية بن حصن الجبل الجبل .

طبعاً هرع المصلون بعد تمام الصلاة للاستفسار عن هذا النداء ؟ .

أجابهم بأنه شعر أن سرية للمسلمين بقيادة سارية بن حصن تكاد تقع في كمين للأعداء فنبهه أن يحتمي بالجبل .

الغريب أنه لما عاد سارية بن حصن من غزوته حدثهم بما جرى في نفس ذلك اليوم .. من سماعهم لصوت شبيه بصوت ابن الخطاب يحذرهم ويشير عليهم بالاحتماء بالجبل بعد أن كادوا يقعون في كمين محكم للأعداء .. كان ذلك – النداء - سبباً لانتصارهم على العدو .

هذا التخاطر بينهما ذكرته الكثير من المصادر والمراجع الموثوقة بما يعزز فرضية حدوثه مع آخرين ..

كما اني قرأت الكثير من الوقائع التي تعزز الفكرة بين مختلف الأمم وفي مختلف الحقب .. بل في عصرنا هذا .

ما استخلصته من بحثي الطويل هو أن ما يحدث لي ليس له علاقة بالتخاطر عن بعد بل هو شيء آخر..

- تباً .. ما هو هذا الذي يجري لي ؟

******

تفاقم وتفاقم

عادت زوجتي من زيارتها لأهلها بوجه غير الذي غادرت به .. الأغرب من ذلك إنها سألتني عما إذا رغبت في تناول كوباً من القهوة! .. أليس من حقي أن أستغرب؟

أبديت موافقتي بشدة على اقتراحها .. ليس حباً في القهوة فحسب .. بل لأنها المرة الأولى منذ سنوات تقترح علي زوجتي اقتراحاً مماثلاً .

تصاعدت أبخرة منعشة ولذيذة من الكوب .. استنشقتها بتلذذ .. رشفت رشفاتٍ .. أنعشتني .. إنها تحسن تحضيرها .. لقهوتها مذاق خاص .... تكمن الصعوبة في اقناعها بتحضيرها .. فقط حين يزورنا أحد تهرع لتحضيرها .. أفرح كثيراً لمثل هذه الزيارات وأتمنى استمرارها لاستمتع بكوب قهوة من تحضيرها .

فشلت في كل مرة حاولتُ مجاراتها في تحضيرها .. كانت تسخر مني في كل مرة .. ها أنا ذا أحظى بهذا الشرف بعد سنوات عجاف .. .. لا يشاركني في هذه المتعة أحد ..

المشكلة إنها تعلم شغفي وإدماني لشرب قهوتها .. لا أعلم من الوغد الذي أدخل في رأسها أن تحضير القهوة ليست من اختصاص الزوجة .. لابد أنها تلك البرامج التلفزيونية الهابطة .

رشفتُ باستمتاع رشفة أخرى .. واصلتُ نقري على الحاسوب .. البحث جارٍ للتعرف على مشكلتي .

استوقفني مقال يحمل عنوان الإدراك فوق الحسي .. أعتقد أن هذا قريب جداً مما أعانيه .. مشكلة هذه الدراسات أنها لا تخضع للمقاييس العلمية لهذا هم يسمونها ظاهرة حتى يومنا هذا .. إنه نوع من إعلان الفشل بطريقة مهذبة ومحترمة .

اكتشفت بعد أسطر قليلة أن هذا الإدراك فوق الحسي أو الفائق للحس هو نفسه الذي نعرفه - نحن العامة - باسم الحاسة السادسة .

بعد عدة أسطر أخرى اكتشفت أن هذا الإدراك له أشكال مختلفة .. منها الإدراك المسبق .. يقصد به المقدرة على معرفة أحداث المستقبل قبل وقوعها .

على فكرة هذه الحاسة لا تعتبر سادسة عند معظم الحيوانات .. فبعضها يتنبأ بالعواصف والزلازل والكوارث .. ما عليك فقط هو متابعتها عن كثب لمعرفة متى تضطرب .. بعدها عليك أن تتخذ قراراً ما .. فهي لن تخبرك بما توقعته .. فقط هي تضطرب لشيء ما .. هي تعرفه وتجهله أنت .. ولن تعرفه إلا بعد وقوعه للأسف .

نوع آخر ورد في البحث نفسه سأختصره هنا :

" إنه يقصد به القدرة على معرفة أحداث الماضي من دون الاستعانة بأي من الحواس أو وسائل اكتساب المعلومات التقليدي" ..

هذا كذلك يحمل اسماً علمياً طويلاً يصعب تذكره لذلك سأورد ترجمته فقط إنه الإدراك الاسترجاعي .. قرأت عشرات الأحداث والقصص التي تتحدث عن هذا الإدراك الاسترجاعي .. خلصتُ في النهاية أنها – كلها - لا علاقة لها بما أعانيه .. فقط استنزفت مني وقتاً .. كما إني لست جاحداً لأنكر إني استمتعتُ بما قرأت .. لكنه لا يفيد في مشكلتي .

بحثٌ آخر طويل .. هذه المرة يتحدث عن حاسة الاستشعار .. هو كذلك نوع من الحس الفائق أو الحاسة السادسة ويمكن اختصاره أيضاً : " هو القدرة على اكتساب معلومات عن حادثة بعيدة أو جسم بعيد من غير تدخل أية حاسة من الحواس وكما يعد الباحثون ظواهر الإدراك المسبق تجاوزا لحاجز الزمن، فإنهم يرون في الاستشعار تجاوزاً لحاجز المكان" .

لا شك ومن الواضح أني لا أتمتع بهذه الحاسة بالذات للأسف .. فما أعانيه نوع آخر من الإدراك الحسي .. لم يذكر في كل تلك الصفحات العديدة التي قرأتها ..

أو ربما أكون أول من يصاب به !..

لا أستغرب ذلك فكل شيء جائز في هذا العالم .

لا جديد في البحث .. يبدو أنها حالة نادرة لم يسبق أن تحدث عنها أحد .. ربما كتاب الخيال العلمي أيضا لم تخطر لهم على بال سماع أناشيد الصراصير ولا حتى عقد المفاوضات مع البوبريصات .

تذكرتُ القهوة ..

كانت قد بردت وفقدت نكهتها ..

يا لي من غر!

مزيداً من التفاااااااااقم

لكن رائحة أخرى تتسلل إلى أنفي .. تغزوه في شراسة .. لم تكن رائحة قهوة هذه المرة .. بل رائحة أخرى أطيب .. إنها قادمة من المطبخ كذلك .. ما سبب كل هذا الكرم يا ترى ؟ .. يبدو أن زوجتي ليست على ما يرام اليوم !

كانت مائدة العشاء عامرة بما لذ وطاب .. بل بما غاب عن هذه المائدة منذ وقت طويل .. كانت السعادة تشع من عيون أبنائي .. كما أن الرضا بادٍ على وجه زوجتي .. وحدي الذي ملئني الشك في كل هذا الكرم .. أحاول أن لا يبدو ذلك على وجهي .. رسمتُ علامات الرضا على وجهي .. أكلت بنهم وحش جائع وبرغبة حقيقية .. كنتُ أعبّر بذلك عن حقيقة مشاعري .. لكني لم استطع أن أتغاضى عن الاستفسار عن سبب كل هذا .. لا أعتقد أن مفاوضتي مع عائلة البوبريص وطردها من المخزن نهائياً تستحق كل هذا الكرم .. كنتُ سأكتفي على كل حال بفنجان القهوة التي بردت من انشغالي في البحث .

لستُ من تلك النوعية التي تخفي انطباعاً كهذا في سريرته .. فسريرتي أصغر من أن أخفي فيها كل انطباعاتي لذلك أحرص على تفريغها بين فينة وفينة .

بعد أن انتهينا من التهام كل ما أعدته من أصناف بديعة وشهية ونادرة .. قلتُ وأنا أحتسي كأس من الشاي الأخضر المنعنع بتلذذ وفرح .. لابد أنك لاحظت أن الأمر خطير.. لو لم تلاحظ ذلك فأنت لا تعرف زوجتي:

- أشكرك على هذه المائدة العامرة اللذيذة .
- لا داعي للشكر.

لم تتمكن من كبت مشاعر السرور لهذا الاطراء الذي حرمت نفسها منه منذ شهر رمضان الماضي .. آخر مرة تحلقنا على مائدة مثلها أو قريب منها ولا يزال أمامنا وقت لا بأس به لقدوم شهر رمضان لهذا العام .

- ما سبب هذا الانقلاب ؟
- أي انقلاب ؟
- اعتقدتُ لوهلة أننا في شهر رمضان .
- الخروج عن المألوف مهم .. كسر الروتين ضروري لتنشيط الحياة وبث روح جديدة فيها .

أستطيع أن أجزم وأقسم بأغلظ الأيمان أن هذا الكلام لا تعرفه زوجتي ولا يمكن أن يكون نابعاً منها .. ربما شاهدت مسلسلاً أو قرأته في مكان ما فأرادت تطبيقه لسبب ما ليس منها كسر الروتين .

- هذا ما كنت أقوله لك دائماً .. لكنكِ لم تكوني تبالين بذلك .
- سأبالي منذ الآن .

أعادت ملأ كأسي بالشاي اللذيذ قبل أن تقول :

- لابد أنه الإرهاق .. الإرهاق يهد الجبال .

ألم أخبركم أن في الأمر ما يريب .. شكوكي دائماً ما تكون في محلها وهذا أحد عيوبي .. لا أعتقد إنها حاسة من تلك الفائقة للإدراك على كل حال .

صحيح أن زوجتي هي من يتحدث بلسانها .. لكن ليس بكلامها .. فالمثل يقول : أن التعب يهد الجمل ولا يهد الجبل .

- لا أشعر بأي إرهاق .... فأنا في إجازة من عملي من شهر تقريباً .
- هذا ما قلته لها لكنها .....

توقفت عن إكمال جملتها بعد أن شعرت بخطأها .. نظرتُ لها نظرة عتاب فهمتها دون حاجة للتعبير عنها بلساني :

- من هي التي قلتِ لها ذلك ؟

تلعثمت وحاولت المراوغة .. قلت :

- وما سبب ذلك ؟

قررت التوقف عن المراوغة .. لم يكن هناك بد من المباشرة والمصارحة :

- ما تمر به ليس طبيعياً .. لذلك .....
- لذلك ماذا ؟ ... هل حدثتها بذلك ؟
- نعم ..
- لماذا ؟ .. ألم أخبرك بضرورة كتمان الأمر.
- خشيتُ أن يتسرب إليهم الأمر من جهة أخرى غيري فسارعت لأخبارهم .

- إخبارهم ؟ .. يبدو أن هناك آخرين !
- نعم .. أمي وأبي وشقيقاتي وأخوي .. فقط .
- فقط !
- نعم فقط .. خشيتُ أن يتسرب الأمر من صديقك الذي حدثتني عنه .. لذلك سارعتُ بإخبارهم خشية غضبهم .
- طبعا لم تأبهي لغضبي .. ولا لمشاعري .. بالتأكيد هم يعتقدون الآن أني مجنون أو في طريقي لذلك .
- في الحقيقة .. هم قالوا لابد أنه الارهاق من مشاغل الحياة .. لذلك نصحوني .
- نصحوك ؟ ...

يبدو أن الأمر قد فلت من بين يدي .. وعليّ إيجاد تأويل سريع لما حدث قبل أن يعتبرني الآخرين مجنوناً حقيقياً ويتعاملوا معي على هذا الأساس .

- الآن وجدتُ تفسيراً لكل هذا التغيير.
- أي تغيير؟
- فنجان القهوة والمائدة .
- هي من أشارت عليّ بذلك .. قالت أن كسر الروتين وتغيير نمط الحياة مهم .. فربما ما تعانيه هو إرهاق من نوع نادر.
- ما شاء الله .. تحليل جميل .. قد يكون إرهاق فائق للحس .
- ماذا ؟
- لا شيء .

سبق وقلتُ أن الصوت صوت زوجتي والكلام لأختها أو أحد اشقائها .. عليّ أن أدعو الله كثيراً أن لا يتسرب من أصهاري ما أعانيه وأمر به .

يبدو أن القول القائل بأن أقرب طريق لقلب الرجل هو معدته .. سيتغير قريباً ليصبح : " أسرع وسيلة للقضاء على الارهاق الفكري إعداد مائدة ثرية " .

***

استفحال

تلك الليلة نمتُ وفي نفسي شيء من الغضب .. أقصد عندما توجهت للنوم .. فقد جافاني هذه الليلة أيضاً على الرغم من التهامي لتلك المائدة بقضها وقضيضها .. لكني التمستُ العذر لزوجتي في النهاية .. خاصة بعد تعالي شخيرها الذي حسدتها عليه كثيراً .

تقلبتُ على جمر الأرق .. لكن لا مكان للنوم في أجفاني .. كنتُ كمن ..... لن أجد الوصف اللائق بالحالة التي كنتُ عليها لذلك سأتوقف عن وصفها .

ما زاد من جرعة الأرق فشلي في الوصول لسبب مشكلتي .. أعدتُ شريط الأسبوع كله دون جدوى .. توقفت محركات بحثي عن البحث بعد أن أضناها البحث .. ليس لأني وصلتُ لسبب مشكلتي ولا لأن النوم قرر أن يعقد صلحاً معي .. لكن لأني سمعتُ هسيساً ..

يبدو أن الحالة قد عادت لسابق عهدها .. إنه أزيز ناموسة تطوف بحثاً عن فريسة .. أحس بها بجوار أذني تحاول معرفة ما إذا كنت صاحياً .. نفضتُ رأسي فابتعد الأزيز .. لا أعلم لما لا يهاجم زوجتي .. فهي في وضع مثالي لامتصاص أنهار من الدم .. لن تشعر بذلك حتى لو فقدت آخر قطرة من دمها .. أحسدها على هذا النوم ..

ناورت – الناموسة - من جديد .. طافت في الاجواء الملاصقة لأذني للقيام بنفس التجربة السابقة .. بسيف يدي ضربت الهواء .. اعلم ان محاولتي لإصابتها فاشلة .. لكنه نوع من المقاومة الإيجابية .. عليّ إزعاجها .. لن تهنأ بقطرة من دمي بسهولة .

حطت في مكان ما ليس على جسدي .. أشعر بجسم أخر يحط إلى جوارها .. يبدو أنهما زوجان يبحثان عن دم يشربانه .. ربما ليحتفلا بمناسبة ما .. كم أكره هؤلاء الدمويون ؟ .

تذكرتُ مفاوضتي الناجحة مع عائلة البوبريص .. فلنجرب مع هذه العائلة إذاً :

- تباً ... ابتعدا عني ... لن أسمح لكما بامتصاص ولو جزء من قطرة من دمي .. جربا مكاناً آخر.

عم سكون .. يبدو أن المفاجأة قد صعقتهما .. أم أنهما يتحدثان لغة أخرى ؟ ..

كما توقعت ... لم يتأخر الرد سوى برهة امتصا فيها الصدمة .. ليأتيني الرد :

- لما كل هذه الحماسة .. أنت لست طبيعياً الليلة .

حتى الناموس يتهمني بأني غير طبيعي .. إذاً لزوجتي كامل الحق في إعتباري مجنوناً وأن تخبر أهلها بما أصابني .. حتى يقوموا بما يلزم في حال استفحل الأمر .. وخرج عن السيطرة التي أتوقع أن تحدث قريباً .. أجبته بالقول :

- هل الطبيعي أن أتركك تمتص دمي ؟ .. يا لك من مأفون ساذج .

- ها هو يمطرنا بشتائمه .. قلتُ لك إنه غير طبيعي .. دعنا نبحث في مكان آخر..

- هل تعني زوجته ؟ .. دمها لا يناسبني .. إنه ثقيل على المعدة .

صرت أحسدها الأن على تعفف الناموس عن امتصاص دمها .. كما أحسدها على كل هذا الشخير المتعالي . قلتُ مهدداً :

- لا تحاول .. سيكون ثمن ذلك غاليا ..

قال هامساً :

- لا تثر غضبه يبدو جاداً في تهديده .. دعنا نبحث في مكان آخر.. تحرك في حذر فخيوط العنكبوت مبثوثة في كل مكان .. لا أحد يأبه لأزالتها في هذا البيت .

قلتُ ساخراً :

- أحمد الله أن زوجتي نائمة .. لو سمعتك لكانت نهايتك قد حلت وأن قيامتك قد قامت .. هل ترغب أن أسمعها ما قلت ؟

أعتقد أن ما أسمعه هو قهقهة لو كان للناموس قهقهة .. قال بعد أن أنهى قهقهته :

- كلا أرجوك .. تلك السمينة لا تطاق .. كادت ذات ليلة أن تصيبني في مقتل لولا لطف الله .. نحن نتحاشى إزعاجها قدر استطاعتنا .

حتى أمة الناموس تصفها بالسمينة .. أمة الإنس وحدها تعجز عن قول الحقيقة .. حتى أنا لا أجرؤ على وصفها بذلك .. آخر مرة نبهتها

تنبيهاً لطيفاً أن تنتبه لوزنها ! .. كادت تحل بي نازلة .. أصلحتُ الأمر بنزهة وعشاء فاخر كلفني كثيراً .. ومذ ذلك الوقت وأنا أطري رشاقتها وحسن قوامها خشية خسائر لا طاقة لي بسداد فواتيرها .. للصدق والصراحة تبعاتها وتكلفتها .

- أين ذهبت ؟

كانت هذه أنثى الناموس تبحث عن زوجها التائه في عتمة الليل

.

- أبحثُ عن مخرج من هذا المحبس .
- حذاري إذاً .

قلت مشجعاً لهما على الهجرة :

- سأساعدكما ..

قمتُ لأزيل الشبكة المحيطة بالنافذة ليتمكنا من المغادرة بأمان .. مرت دقيقة كاملة لم أسمع لهما حساً ولا ركزاً .. يبدو أنهما غادراً بحثاً عن وجبة دموية في مكان آخر .. أتمنى لهما السلامة في رحلتهما المحفوفة بالموت .. أعدتُ الشبكة لسابق عهدها .

حاولتُ أن أنام من جديد .. استخدمتُ طريقة غاية في القدم في جلب النوم وترويضه : " عد الخراف التي تقفز الحاجز" .. كانت المفضلة لأبناء جيلي .. لكنه – النوم - لا يستجيب !! .. على الرغم إني تجاوزت عد مائة خروف .

***

- تباً .. ضاعت فريسة كانت في المتناول .

بالتأكيد هذا ليس صوت زوجتي .. فشخيرها لا زال على نفس النغمة .. كما أنه بالتأكيد لا يمتُ لعائلة الناموس .. فقد أحكمت إغلاق الشبكة على النافذة .

تذكرت .. أنها العناكب !

- بثثت عدة فخاخ في عدة أماكن .. كان أحدهما سيكون صيداً سهلاً لولا هذا الأبله .

يبدو أنه يعنيني أنا بالأبله .. هل علي أن أثور أم ماذا ؟

على العموم الأبله ربما وصف أقل سوء من السمينة .

تعالى شخيرها فجأة .. يبدو أن عقلها الباطن يعمل بكفاءة عالية !

- عليك أن تبحث عن مكان آخر لنصب فخاخك .. لن يطول الوقت كثيراً لإزالة كل هذه الخيوط المقيتة .. أنصحك بالإسراع .

همس يصل سمعي في ركن السقف الأيمن .. يبدو أنه مكان مكمنه المفضل ..

- هل قررت الغدر بنا ؟

- ليس من طبعي الغدر.. لكني لا أضمن ما سوف تقوم به زوجتي .. ثم أن الأبله ليس بالوصف الذي يمكن التغاضي عنه .

تبادلا همساً ثم أتاني صوت خشن بعض الشيء .. من الواضح إنه الزوج .. قائلاً :

- نأسف لما بدر منا .. لكنكم تجحدون أفضالنا عليكم هذا يدعونا للسخط .. أليس من حقنا السخط ؟

قلت محتجاً حتى خشيتُ استيقاظ زوجتي من سباتها :

- أفضاااالكم !!!!

- نعم .. لكنكم قوم منكرون للفضل .

- منكروووووون !!!

تدخل صوت أقل خشونة .. من الواضح إنه لربة البيت أقصد الشباك المنصوبة :

- لولا وجودنا هنا لما استطعتم النوم من أزيز الناموس .. فالأعداد الهائلة التي تقع في شباكنا تكفي لإزعاج فيل .. نحن السبب في استمتاع زوجتك السمينة بكل هذا الشخير المزعج لنا .

- هذه السمينة لو سمعتك تصفها بهذا الوصف فلن تقوم لك قائمة .

تهامسا من جديد عاد الصوت الأكثر خشونة ليقول :

- نعتذر من جديد .

- الاعتذار لا يكفي يا صديقي .. ربما أكون أكثر تفهماً للتوازن البيئي لكن هذه السمينة ليست كذلك .. لن ترى في خيوطك المتدلية من الزوايا إلا شيئاً مقززاً يجب ازالته فور رؤيته .. عليكما استبدال خططكما .. نشر كل هذه الخيوط ليس بالأمر الجيد .

- لكنها الطريقة المثلى للقضاء على أعدائكم .

قالتها الزوجة بشيء من العجرفة :

- المشكلة أننا نعتبركم كذلك من أعدائنا .
- هذه عدوانية .
- قلتُ أني ربما قد أتسامح من أجل التوازن البيئي فقط .. هذا لا يعني أني يمكن أن أصبر كثيراً عليكما .. فليذهب هذا التوازن للجحيم .. يمكننا استخدام المبيدات بدلاً منكم للقضاء على أعدائنا .

سمعت قهقهة مستهترة .. بدأتُ أشعر بالغضب من هذه العجرفة المقيتة لصاحبة النسيج .

- هكذا أنتم الذكور .. عجرفتكم ستسبب فناء هذا الكوكب بمن فيه .
- هل توافقها على ما تصفنا به ؟ .
- هممممم .. ربما في كلامها الكثير من الصدق .

يبدو متردداً .. قلتُ مهاجماً :

- أنت أيضا تعد صيد مهم لهذه المتعجرفة ..
- أنا متعجرفة ؟
- وغادرة أيضا .

جاءني صوته الخشن معترضاً :

- ها أنت تهين زوجتي بدورك ..
- هل ترغب في اعتذار مني ؟

- هي ليست متعجرفة ولا متطفلة .. بل هي أحد أسباب التوازن في هذا الكوكب .
- حتى لو كان هذا التوازن على حساب زوجها .

همهم دون ان يجيب .. أضفت مهاجماً بقوة :

- ستكون وجبتها ذات يوم هل تعي ذلك .. تباً للتوازن البيئي .. يا لك من غرساذج .
- هذا هو قدرنا .. ربما إناثكم أشد عجرفة من إناثنا .. فقط هن لا يأكلن أزواجهن .. بسب تعففهن عن ذلك .. أو أن ذلك لا يخدم التوازن في هذا الكوكب .
- اتفق معك في أن ذلك لا يخدم التوازن البيئي .. على العموم هناك الكثيرات يتحولن لعناكب متوحشة بمجرد الحصول على الزوج .. الرجيم والحمية وحدهما يمنعهن من التهام الأزواج ربما .. وربما لحاجتهن للظهور في الحياة العامة بصحبة الأزواج .. فالعنوسة قاتلة وكذلك الترمل .. هذا ما يجعل من حياتنا أطول عمراً .
- وأكثر ضجراً ..
- صدقت .
- قصر حياتكم هي ما يجعلها أقل ضجراً .
- صدقني حياتنا مثيرة على الرغم من كونها محفوفة بالمخاطر .. إنها زيجتي الرابعة .
- إذاً فقد أفلحت في النجاة ثلاث مرات من براثن زوجاتك السابقات .

- نعم .. استمتع كثيراً بحياتي .. ربما قريباً أبحث عن مكان آخر أكثر إثارة بعيداً عن هذا الشخير المزعج .
- حذاري أن تسمعك .
- من زوجتك ؟
- لا بل زوجتك .

قهقهة طويلاً قبل أن يقول :

- لا أدري إن كانت تسمع ما يدور بيننا الآن .. اعتقد إنها نائمة مذ غادرت الناموستان المكان .
- لا تركن لهذا الظن .. كلهن يتصنعن ذلك ويحسن التصنع .

تململت زوجتي في فراشها .. سمعتُ بعدها صرخة استغاثة .. يبدو أنه وقع في فخ طالما فر منه .

" الغرور مقبرة الأبطال " .. كانت هذه العبارة مكتوبة في لوحة جميلة في مدرستنا الابتدائية .. لكن العناكب لا تحسن القراءة على الرغم من أن أسقف المدارس تعج بنسيجها المقرف .

جف حلقي ..

قمت لتناول كوب ماء ..

******

مزيدًا من الاستفحال

كان السكون يعم الكون .. من غرائب هذا العالم أنه يقسم الكائنات إلى فئتين .. كائنات سكنت وخمدت ونامت في انتظار يوم جديد .. كائنات أخرى استيقظت ونشطت لتبدأ يومها من عتمة هذا الليل .. كائنات أخرى تعيش بين هذين العالمين .. منهم من يتخذه للسهر والمتعة .. ومنهم من جفاه النوم واستعصى عليه واضطر لسهره .. أنا الليلة محسوب على هذه الفئة .

أعلم أنه يكون من الصعب الذي قد يرقي لمرتبة الاستحالة أن يتصالح معي الليلة .

ساعة البيت الجدارية التي تتوسط الصالون تشير إلى الثانية فجراً .. في طريق عودتي من المطبخ عرجتُ على دورة المياه .. لم تكن بي رغبة لقضاء حاجة من الحاجات البشرية .. لكنه الفضول الذي ساقني الآن تحديداً لدخول دورة المياه .. أني أبحث عن ذاكما العاشقين .. والوقوف على آخر ما استجد بشأنهما .

ضغطت على مفتاح تشغيل الإنارة .. سمعتُ حركة مضطربة .. تزحلق هنا واصطدام هناك .. برهة وانتهى كل شيء وعاد السكون ليعم المكان .. يبدو أن المكان صار مرتعاً وملاذاً محبباً ليس للعاشقين بل لغيرهما .. ربما لن يطول الأمر ويتعرض كل هؤلاء الضيوف الثقلاء لغارة سريعة من زوجتي لتعيد تحريره وإعادته لسيطرتها من جديد :

- هل راق لكما المكان ؟

هذه المرة أنا من طرح التساؤل .. انتظرتُ برهة وبرهتين وأكثر من ذلك .. بعدها شعرتُ بحركة ما تصدر من خلف المرحاض .. إنه مكان مناسب للاختباء .. تحرك شيء ما من خلفه .. كان يبحث عن مفر.. حجمه الصغير يدل على صغر سنه وقلة خبرته وتجربته .. اضطربت حركته وغلبت عليها العشوائية .. هذا يدل كذلك على إنها زيارته الأولى لمكان لم يعتد التواجد في مثله .. تفطنتُ لذلك بسهولة .. كنتُ أقف على منفذ النجاة الوحيد .. حركتُ قدمي قليلاً .. أسرع الصرصور الصغير لاستغلال تلك الانفراجة .. ليحشر جسده البني القاتم المقزز بين الفتحات ليصل للنجاة والأمان .

- أعلم أنكما هنا .

كدتُ أغادر لأكمل سهرتي مع تلك المتوحشة – العنكبوت .. فبالتأكيد إنها انتهت من إلتاهم زوجها الغر المتكبر.

لولا السكون لما تفطنتُ لوجود حركة ما .. بالكاد يمكن التقاطها .. أطفئتُ المصباح .. قبل أن أحكم إغلاق الباب سمعتُ حركة .. أسختُ السمع :

- لا تخشي شيئاً لقد غادر ذلك السمج .

تباً لهما لا زالا ينعتاني بالسمج وكأني أنا الذي أسكن بيتهما واتطفل عليهما .. ردت أنثاه المتوجسة :

- قلتُ لك منذ البداية أن هذا المكان لا يروقني .

- المكان لا بأس به .. صحيح إنهم يكثرون من استعمال السموم .. لكنهم لا يعلمون أنها لا تجدي نفعاً معناً .

- المكان فسيح وهاديء لكن هذا لا يكفي لجعله مستقر دائم لنا .
- ألم يكفك أننا نقوم بزيارات يومية لباقي الرفاق في المواسير والمجاري .
- أحسدهم .
- على ماذا !.. المجاري تعج ولا موطيء لقدم فيها .. والكل يحاول إيجاد بدائل آمنة .
- يكفي أنهم لا يشعرون بالخوف في كل لحظة .. فقدتُ الكثير من وزني وأناقتي من جراء هذا المكان المفزع .. إنه لا يبعث على الاطمئنان أبداً
- كثيرون يحسدوننا على ما نحن فيه .. لا تنسي أني خضت اكثر من معركة من أجل طرد كل أولئك الطفيليين الذين يرغبون في مزاحمتنا .
- ليتك تسمح لبعضهم بمشاركتنا المكان .. هذا أبعث للأمان .. الخيرة في الاجتماع يا عزيزي .
- هذا يعني أن يشاركونك الاستمتاع بأشعاري وأناشيدي .
- لا يهم .. هذا أفضل من الشعور بالخوف .. كما أنك تطيل المكوث في المجاري ما يبعث القلق في نفسي .. فوجود صراصير آخرين معنا يجعل الأمر أكثر أنساً .. فكريا عزيزي في الأمر .. كما أن ذلك يمنحنا فرصة أكبر للنجاة خاصة في حال شن علينا ذلك السمج هجوماً .
- لا أظن أن يفعل ذلك .. أنا لا أتوقع منه أمراً كهذا .
- هذا يتوقف على زوجته .. فحين تطلب منه ذلك لا يتوانى ولو دقيقة واحدة في تنفيذ طلباتها .. كم أحسدها على مثل هذا الزوج .

كم هو ممتع أن يشعر صرصور بالغيرة منك !!..

سأجن قريباً إذا لم أضع حداً لكل هذا .. قلت لها :

- أشكر لك اطراءك .. واعدك بأن لا أطيعها في هذا الأمر في القريب العاجل ريثما تبحثا عن مأوى آخر.

عدت لفراشي لأواصل محاولاتي اليائسة للنوم .

******

كبسة

تعالى شخيرها لمجرد دخولي لغرفة النوم ..

أكاد أقسم أنها تسمع وتعي ما يحدث حولها .. يبدو أنها تملك إدراكاً فائقاً للحس لكل حديث قد يتناولها .. للمرأة حاسة خفية لكل ما يسيء لها حتى لو كانت تغط في نوم عميق .

هذه أهم وأقدم ظاهرة إدراك فائق للحس في هذا الكون .. هذه ظاهرة من السهل رصدها وتحليلها على كل حال .. فآثارها ملموسة ومعاشة كل يوم .. يبدو أن العلماء - الرجال – أجبن من أن يهتموا بهذه الظاهرة .. أو أنها لم تعد ظاهرة فتكرارها الدائم وانتشارها ينزع عنها هذه الصفة .. هذا عذر مقبول لو تحججوا به .

ثم بالتأكيد أن عواقب البحث في مثل هذه الظاهرة ستكون وخيمة على من يتصدى لها ..

منذ الصباح الباكر اتصل صديقي ميم .. كان يلح في تحديد موعد معه .. لا أدري ما في جعبته .. لكن اهتمامه الزائد يريبني .. لابد أن الحادثة استثارت فضوله كثيراً .. قررت لقائه .. فربما نصل معه لحل لما أنا فيه .. كم أنا فخور بصداقتك صديقي ميم .

كانت نظرات زوجتي تقول الكثير .. لكنها تنتظر وقتاً مناسباً لتُسمعه لي .. هي أشبه بالبالون الذي ينفخه طفل بريء في سعادة .. يحاول إدخال أكبر قدر من الهواء في جوفه في حماسة .. متناسياً أن ذلك سيكون سبباً في انفجاره في وجهه .. نفخة واحدة ستكون سبب ذلك

الانفجار.. هو لا يعلم أي نفخة ستفجره في وجهه .. لكنه يصر في براءة على نفخه .. بعد أن ينفجر يصاب بخيبة أمل واضحة على وجهه .. يحاول اخفائها بابتسامة بلهاء مصحوبة بصيحة هييه .

أنا الآن انتظر النفخة التي ستكون سبباً في انفجارها .. وسيكون انفجارها مدوياً هذه المرة .. فما كتمته في جوفها أكبر من أن يتحمله أي بالون .. لن تكون ردة فعلي " هيه " .

والتقينا ... أنا وصديقي ميم ..

كعادته متحمس للغاية .. لديه من التفائل ما يكفي مدينة كاملة محبطة .

كان ذلك في منتصف النهار.. توقعتُ أن يكون اللقاء في بيتي أو في بيته أو في مقهانا المعتاد .. لكنه أصر على أن أصحبه لمكان ما رفض أن يكشف عنه .. سرنا كثيراً .. لو سرنا كل هذه المسافة في وقت آخر لأصابني الملل ولأصررتُ على العودة .. لكني انشغلت بالاستماع لبعض المحادثات التي تجري حولي .. تارة بين ذبابتين تحومان حول أنف صاحبي .. أصرتا على إزعاجه لكنه أكتفى بالتشويح والتلويح في وجهيهما .. بعدها اضطر لفتح النافذة وطردهما خارجًا .. تارة أخرى استمعت لمحادثات ومناجاة و طلب النجدة من مخلوقات عجزت عن تحديد نوعها ولا مكانها من السيارة ..

اكتفيت بالابتسام والمتابعة .

كثيراً ما فاجئني صديقي ميم شارداً غير منتبه لما يقول .. يبدو أنه قال كلاماً كثيراً – مهماً - .. مشكلة صديقي ميم أنه لا يغضب ولا يمل ولا يكل ولا ينزعج .. هذا النوع من البشر وحده ظاهرة فريدة يمكن أن تدرس

في أرقى المعامل والجامعات .. لكن للأسف العالم مهتم بأشياء أخرى أكثر تفاهة من هذه الظاهرة .

- وصلنا .

توقفت السيارة أمام بيت .. المكان يوحي أننا في ضواحي المدينة .. لا أعلم كيف اهتدى لمثل هذا المكان ! .. طرق الباب عدة مرات .. فَتَح الباب شاب يصغرني وصديقي بعدة سنوات .. هش وبش ورحب بنا كثيراً :

- أنا " ميم " .. وجئتُ بناء على موعد بالهاتف .
- حسناً ... حسناً تفضلا .. هل هذه هي الحالة ؟

تباً لهما .. صرت حالة بعد أن كنت إنساناً كامل الأهلية .. لا يمكنني الاعتراض الآن .. لن أنس الاحتجاج في طريق العودة .

لم تكن القاعة التي ولجنا إليها توحي بالثقة .. على الرغم من أثاثها الفاخر وديكورها الغريب .. إضاءتها الخافتة ورائحة بخور خانقة تكفي لقتل مدينة .. لا يمكن أن تمنحك ذرة ثقة .. كما أن قسمات وجهه وهيئته تكفي لتنفر منه .

من الواضح إنه يتعامل مع الشياطين بل والمردة منهم .

جلسنا على مقاعد وثيرة .. تحدث " ميم " عن حالتي .. لم تكن نفسيتي تسمح لا بالحديث ولا حتى بالمتابعة .. كنت شارداً .

انتهى " ميم " من تشخيص الحالة وكأنه هو المصاب بها .. أعتقد أنه أحسن ذلك ربما أفضل مما سأفعل أنا .

تفرّس في وجهي .. ابتسامته قميئة تدل على نذالة ما سيقوم به .. كان "ميم" في قمة نشوته .. ابتسامة رضا تملأ صفحة وجهه .. لكني لستُ كذلك .

سحابة من البخور تحجب الرؤيا بيني وبينه .. عم صمت تتطلبه المرحلة على ما يبدو .. كان يتفحصني بعينيه ثم بأنامله .

- هل تسمع شيئاً الآن ؟

اكتفيت بالإشارة برأسي ..

- ماذا تسمع ؟
- أصوات مختلفة .
- مثل ماذا ؟
- صراخ بسبب خصام على شيء ما بين فأرين .

ارتسمت أسوء امتعاضة يمكنك أن تراها على وجهه .. تمتم كثيراً قبل أن يقول :

- صدقت .. يبدو أنك تعاني من مشكلة لم يسبقك إليها أحد .. لكني أبشرك .. ليس للشياطين علاقة بما يحدث لك .

سحابة بخور حالت بيني وبين رؤية ما ارتسم على وجهه .. ما تبينته إنه عدم رضا .. يبدو أنه كان يمني نفسه بصفقة كبيرة ثمناً لمعالجتي .

صديقي " ميم " طرح سؤالاً لا يفوت رجل يمتلك كل مواصفاته :

- كيف عرفت بأنه صدق في مسألة الفأرين ؟

أجاب منهياً اللقاء :

- استغرب سؤالك .. لماذا أنت هنا إذا ؟

كان يعني أن عملائه أخبروه بصحة ما قلته .. هذا ما لا يمكن التشكيك فيه .. غادرنا ..

أمام مدخل البيت عدة سيارات ينتظر أصحابها موعدهم مع سماحته .

خاصمت "ميم " طوال رحلة العودة كاد يصل الأمر بيننا إلى الضرب .. لكني تنازلتُ وتسامحتُ لمعرفتي حسن نواياه .. كما أنه أكد أنه لم يتوقع أن ينصحه صديق مقرب – له - بزيارة مشعوذ كهذا .

كان لا بد من زيارة طبيب ..

هذا ما قررته في طريق عودتي .. بل هذا ما شرعتُ في تنفيذه .

لا زالت أصوات مختلفة تصل لمسمعي .. بدا الأمر مزعجاً جداً بعد أن كان مسلياً .

لن تطاق الحياة بهذا الشكل .

لن تطاق أبداً .. أبداً .

******

عيادة

كانت مكتظة ..

كثيرون ينتظرون دورهم .. يبدو أني لستُ الوحيد الذي يعاني مشكلة في سمعه .. لكن هل هناك من يعاني نفس ما أعانيه ؟ .. لا أدري!

.

مقاعد قاعة الانتظار السبعة مشغولة بمنتظرين .. تبادل بعضهم حديثاً صارخاً .. من الواضح أنهم لا يعيرون أي اهتمام للوحة المعلقة التي تطلب الهدوء من زوار العيادة .. كما أن موظف الاستعلامات لم يحرك ساكناً لإيقاف هذه الضوضاء .. إذا كان لا يبالي بكل هذه الضوضاء فهو أحوج منا للدخول على الطبيب .

طلب مني الانتظار في حديقة العيادة ريثما يفرغ كرسي أو العودة بعد ساعتين على الأكثر.

فضلتُ الأولى على الثانية .. لن يضيرنا انتظار ساعتين في حديقة جميلة كهذه .. مغادرتي تعني عدم عودتي .. أنا أعرف الناس بنفسي لذلك أنا الآن جالس على مقعد الحديقة المعتنى بها .

الهدوء نعمة .. ربما الصمم كذلك نعمة مقارنة بما أنا عليه .. علينا تحوير العبارة المدرسية الشهيرة القائلة بأن : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى .. لتصبح : الصمم نعمة في آذان الطرش لا يقدرها إلا من يعاني كل هذه الضوضاء السمعية .

كان المكان هادئاً إذا استثنينا صوت مرور سيارة بين فينة وأخرى .. لم تعد أصوات المنبهات تعد من ضمن الضوضاء .. صارت أمراً طبيعياً ربما لو اتفق كل السائقين على عدم استخدامه لحلت كارثة قومية وسوف تتغير حياتنا بشكل مريب .. العيش دون صوت منبه السيارة أشبه بالنوم في قبر بارد في ليلة شتاء .

مرت نصف ساعة على جلوسي وحيداً .. غادر أكثر من شخص .. لا زال علي انتظار الخمس الباقين .. فضلت البقاء في الحديقة على الدخول لضوضاء القاعة .. خاصة أن ذلك الكهل الذي يصيح بكلتا يديه وفمه لا يزال هناك .

- اقتربتْ الشمس من موعد مغيبها .. علي العودة بسرعة للقرية قبل إغلاق الأبواب .

بالتأكيد لست قائل هذه العبارة .. وليس بجواري بشري واحد يمكن اتهامه بقولها ..

- تباً .. من تكون يا هذا إذاً .

كانت الشمس تلفظ أنفاس النهار الأخيرة .. اشتعلت أنوار العيادة الخارجية ..

بحثتُ حولي لأعرف مصدر الصوت وصاحبه الذي يستعجل العودة للقرية .

- أي قرية تعني يا هذا ؟

- قريتنا طبعاً أيه الفضولي .

توقعتُ أن يكون صاحب الصوت هراً .. استبعدت الأمر لسببين أولهما أن الهرر لا تعيش في قرى .. كما أنها لا تأبه لغياب الشمس بل على العكس تماماً فهي تعشق العتمة .. ويحلولها التجوال والصراخ فيها .. أما أهم من هذين السببين أنه لا هرولا قط في الجوار .

صاحب الصوت ينوء تحت وطأة حمل يثقل كاهله .. لذلك انصب بحثي عن قرية نمل في هذه الحديقة .

- لابد أن الأبواب على وشك إغلاقها الآن .
- ما الذي حدا بك للتأخر عن موعد إغلاق الأبواب .
- أولاً أرجو أن لا تخاطبني بصيغة المذكر.. فأنا أنثى .. ثم لم تحشر أنفك فيما لا يعنيك .
- أرغب فقط في المساعدة .. ربما أستطيع ذلك أيتها النملة التائهة .
- لست تائهة .. تعمدتُ الابتعاد حتى لا أضطر لمقاتلة تلك المتغطرسة .
- من تعنين ؟
- قائدة فصيلنا .. من تظن نفسها ؟
- هل تشاجرتما ؟
- دائماً ما أتشاجر معها .. وقد أرسلتني في مهمة وهي سبب تأخري الآن .. لابد أن الأبواب مقفلة الآن .. لقد أخرتني أيها الفضولي .. تباً لك ولتلك المتغطرسة .
- هل أنهيت مهمتك بنجاح .
- تلك المهمة لا يفترض أن أنجح فيها ..
- لم كلفتك بها إذاً ؟

- هي فقط تريد إبعادي .. هي تكرهني لسبب بسيط .
- ما هو يا ترى ؟
- الغيرة طبعاً أيها الفضولي .
- تغار منك ؟
- نعم .. فقوامي أرشق من قوامها .. كما إني المرشحة لقيادة الفصيل مكانها .
- لم أكن أعلم أن في قرى النمل كل هذه المشاكل .. اعتقدت أنكم أمة تعمل في صمت .
- لكل أمة مشاكلها .. لقد أضعت عليّ وقتا ثميناً أيها الفضولي .. إنك تمنحها فرصة القضاء عليّ بتهمة الاهمال والتقصير.
- دعيني أساعدك قبل أن تغرب الشمس .
- المشكلة أني أضعت رائحة الطريق المؤدية للقرية .. لابد أنها من غيرت معالم الرائحة .. تباً لكما .
- لما تشتميني وأنا راغب في مساعدتك ومد يد لعون لك .

نظرتُ حولي بحثاً عن قرية نمل في الجوار .. كان نحيبها واضحاً لي مخيفاً يقطع نياط القلوب .. تحركت من مقعدي بحثاً عن قرية نمل .

في ذلك الركن القصي من الحديقة .. ذلك المرتفع الصغير .. يبدو مكان مناسباً لتشييد قرية نمل .. حملتها على ورقة تساقطت من الشجر .. قربتها من المكان .. يبدو أنها تتشمم الرائحة لتتعرف على القرية .. ابتسمت أن كان للنمل ابتسامة ..هكذا أحسست ..

- شكراً أيها الفضولي على مساعدتك .. إنها رائحة قريتي .. انتصرت عليها هذه المرة أيضا .. عدتُ قبل تغليق الأبواب .. يا لي من محظوظة .
- تحياتي أيتها المثابرة .. أتمنى لك حظاً سعيداً في قريتك .

سارت في رشاقة نحو مدخل القرية .. استوقفتها نملتان .. يبدو أنهما يطلبان إبراز بطاقة تعريفها أو ما شابه .. تشممتها إحداهما فسمحت لها بالمرور..

- تدبري أمرك .. غداً لن أكون هنا .
- لا عليك .. شكراً لك صديقي .

تخرج نملة ثالثة .. توبخ الحارستين :

- كيف تمكنت من العودة بهذه السرعة ؟
- لا نعلم .. ربما لم تبتعد كثيراً .
- لكني قمت بتغيير الرائحة .. توقعت أن تتوه أو يدوسها إنسي متعجرف أو تفشلا في التعرف عليها فيكون مصيرها التمزيق .
- حاولي مرة أخرى .. ربما تنجحين .
- علي تغيير خططي .. هذه النملة ترغب في إزاحتي عن منصبي .
- ربما عليكما حل هذا الإشكال دون اللجوء لهذه الطرق الإنسية الخبيثة .

تلوح النملة الغاضبة قبل أن تدخل القرية من جديد .. سمعت صوت قوياً .. ربما هو صوت إيصاد أبواب القرية .

يبدو أن لكل أمة مشاكلها ومؤامراتها .

- هيه .. هيه .. أنت إنه دورك .. ألا ترغب في إجراء كشف ؟ .
- لماذا تصيح هكذا .. أنا لا أعاني صمماً .
- لماذا أنت هنا إذاً ؟

لم أكلف نفسي عناء الرد على سؤاله .. فهذا ليس من اختصاصه على كل حال .

يبدو أن وقتاً طويلاً قد مضى دون أن أشعر به .. كانت الشمس في مكان آخر من العالم والليل قد حل مكان النهار منذ وقت .

كشف

كان شاباً تبدو على محياه علامات النجابة والفطنة .. ابتسامة مريحة مرسومة على شفتيه وأناقة المكتب كافية لتكوين مثل هذه الفكرة .. أشار لي بالجلوس ..

هذا النوع من المعاملة ربما ما يجعل قاعة انتظاره تعج بالمراجعين .. الناس بحاجة للمسة حنان مهما كانت .. ولو كانت من طبيب أذن وأنف وحنجرة .

جلستُ ..

دوّن شيئاً ما في أوراق كانت أمامه .. لا تزال ابتسامته مشرقة .. رائحة لطيفة في جو الغرفة .. موسيقى هادئة وخافتة تنبعث من مكان ما .. ربما ليستمتع بها هو لا زبائنه :

- رائعة هذه المعزوفة .

كانت هذه إشارة - ذكية - مني .. فهم منها أني لا أعاني صمماً ولا ضعفاً في السمع :

- جميل .. لماذا أنت هنا إذاً .

- بالتأكيد من أجل مشكلة في السمع وليس من أجل الحديث عن الموسيقى .

اتسعت ابتسامته .. تبادلنا بعض النكات الطريفة .. كانت له روح مرحة على عكس ما كنتُ أتوقعه من طبيب أنف وأذن وحنجرة .. عاد بنا للجد دون أن يتخلى عن ابتسامته :

- هات ما عندك .
- لدي مشكلة في السمع .
- أعلم أنك لم تأتي هنا من أجل مناقشة الموسيقى .. أو من أجل التفاوض على شراء لاعب لريال مدريد .

حدثته بكل التفاصيل .. استطاع الاحتفاظ بابتسامته لوقت طويل من أحداث القصة .. بعدها تغيرت ملامحه .. صارت أقرب للحيرة ..

طلب مني التوقف لدقيقة .. خرج إلى الردهة ليصرف مساعده ..

- لا داعي لتأخيره أكثر مما فعلنا .

كان يستمع بكل حواسه .. لم يقاطعني سوى هذه المرة فقط .. منحني إحساساً بأهمية ما أقوله مشفوعاً بابتسامة جميلة .. أحسده على هذه المقدرة والمهارة .. هؤلاء الأطباء يتقاضون مبالغة طائلة من أجل سماع هراء المرضى .. ومنحهم جرعات من الأمل بمجرد حسن استماعهم لهذا الهراء .

سجل العديد من الملاحظات .. ملأ عدة صفحات .. كتبها بطريقة الأطباء طبعاً .. حسب طريقة كتابته يمكن الاطمئنان كثيراً له بل يمكن اعتباره أخصائياً .. فيستحيل حتى على طبيب آخر فك طلاسم ما سطره

بقلمه .. ربما سيعجزهو أيضا بعد مروريوم واحد فقط على قراءة ما كتب .

طرح علي العشرات من الأسئلة .. أعتقد أن أكثر من نصفها لا جدوى منها ولا علاقة لها بما جئت من أجله .

قام بقياس سمعي بعدة أجهزة .. استخرج عشرات التخطيطات من جوف تلك الأجهزة .. أعاد الفحص مرات ومرات .. في كل مرة تتقلص ابتسامته حتى تلاشت نهائياً .

أخيراً عاد لمقعده .. قال بعد أن تنفس الصعداء :

- أنت تمر بظاهرة فريدة .

يا له من اكتشاف !! ..

لم أتجشم كل هذا العناء ولا إجابة كل تلك الاسئلة من أجل سماع هذا الرد .

طرح السؤال الوحيد الذي عجزت عن إجابته منذ أصابتني الحالة – الظاهرة - .

- ما الذي تسبب لك فيما أنت فيه الآن ؟
- حاولت كثيراً يا دكتور للحصول والوصول لإجابة هذا السؤال .. لكن كما ترى فشلتُ في ذلك .. ولو نجحتُ لربما لم ترني هنا .

نظر من جديد في أوراقه .. تفحص عدة تخطيطات .. كنتُ أعلم أنه يفر من نظراتي المستنجدة .. فأوراقه ليس فيها ما يمكن الاستفادة منه ..

قلتُ متوسلاً :

- أعلم أن ما بي ليس مرضاً يمكن علاجه بالعقاقير أو بالصدمات الكهربائية ولا حتى بسماع موسيقى أو بالصفع والركل .. فقط أرغب في العودة لما كنتُ عليه قبل أن تتلبسني هذه الظاهرة .. صارت زوجتي تعتبرني مجنوناً .. ليس هي فحسب ربما سينتقل هذا الانطباع للآخرين قريباً ..

أضفت بعدها :

- أريد حلاً يا دكتور .

هز كتفيه بإشفاق ..

- قد تتلاشى وحدها .
- أو قد تتفاقم .
- كل شيء جائز .. كثيرة هي الحالات التي وقف الطب عاجزاً عن إيجاد حلول لها .. بل وقف حائراً أمامها .
- هل هذا كل شيء ..

أشار برأسه إيجاباً .. قمتُ للمغادرة .. رفض تقاضي أتعابه .. أخذ رقم هاتفي .. أشار أن الأمر قد يصبح ذا نفع لي وللعلم .

كان يشير إلى استثمارها مادياً .. ابتسامته توحي بذلك بوضوح .. ختم بالقول :

- ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد على كل حال .

- بالتأكيد يا دكتور .. لو استمعت إلى أناشيد الصراصير ومناجاة العناكب وصراع النمل ربما لتغير رأيك ..
وداعاً .

قبل أن أغلق الباب خلفي استدرك قائلاً :
- هل تتلبسك الحالة الآن ؟
- لا أعلم ..

لكني توقفت قليلاً .. اسخت السمع .. اقتربت من أحد الأدراج .. وقفتُ بمحاذاته .. تسمعت .. كان يراقبني بكل جوارحه .. يبدو أن فكرة استثماري راقت له .. بل شرع في اختباري قبل أن يتورط .. قلت :
- هناك خنفساء تأن تحت وطاءة دفاترك في أحد هذه الأدراج .. وخنفساء أخرى تحاول مساعدتها .

وقف مبتسماً .. تقدم نحوي .. فتح الدرج .. كانت الخنفساء هناك تحاول التملص من ثقل الدفتر.. بينما خنفساء أخرى بجوارها.
عندما رفع رأسه ليقول شيئاً .. كنتُ قد غادرت .

صراع

عدتُ إلى البيت ..

أحسستُ بشيء من الراحة .. ربما طريقة حديث الطبيب كانت سبباً لما شعرت به .. الفرق بين وواضح وشاسع بين حالتي التي خرجت بها من بيت المشعوذ وهذه التي أنا عليها الآن .

قد تكون الراحة في أن يشاطرك أحدهم همومك .. ليس بالضرورة أن يزيل عن كاهلك كل الحمل .. لكن مواساته ولو بكلمة لطيفة كافية ليمنحك مثل هذا الشعور .

لا أعلم ما إذا استرجعتُ سمعي الطبيعي .. أم أنه لا توجد كائنات تتحدث في جواري .. لا نمل ولا عناكب ولا فئران لا خنافس تمنيتُ أن تكون الأولى طبعاً ..

ربما كان ذهني مشغولاً باستثمار الحالة كما لمح الطبيب بابتسامته الجميلة .

ترجلتُ من السيارة .. قبل فتح باب البيت سمعتُ صراخاً .. التفتُ حولي .. كان ذلك قط رمادي .. يصرخ في وجه قط ذو فروةٍ سوداء مخططة بخطوط بيضاء بجوار برميل القمامة .. توقفتُ لمتابعة عما يسفر عليه كل هذا الصراخ .

تبادلا المواء الصارخ بحماسة ..

اقتربا من بعضهما .. الشرر يتطاير من عينهما .

كانت بالجوار هرة تراقب المواء الساخن .. يبدو أنها محور المواء وسبب كل هذا العراك .. قوسا ظهريهما .. انتفش وانتصب شعر فروتيهما .. تبادلا تكشير الأنياب .. بدا أن الخصمين لا ينويان التراجع .. نظرا للهرة المترقبة قبل أن يبدأ صراعهما .

تقافزا في وجه بعضهما .. وتصارخا متبادلين مواءً مزعجاً

ارتفاع حِدة المواء كان سبباً لتجمع قطط أخرى من كل حدب وصوب .. توقفت كلها عن البحث والتنقيب في البراميل المجاورة عما يليق بعشاء الليلة .. اقتربت من مركز الصراع في فضول .. وقفت ترقب المعركة الدائرة في حماسة مفرطة .

اشتبكا ..

تمرغا طويلاً .. سقط برميل القمامة أرضاً .. تناثرت محتوياته .. اختلطا بها .. تصاعدت مواءاتهما .. مشكلتي أني لا أفهم في مواء القطط .. لغتها غير مفهومة .. تلقى أحدهما لكمة جعلته يموء ألماً .. لم ينتظر كثيراً لرد اعتباره أمام الهرة محل النزاع .. فوثب عالياً وغرس أنيابه على خد خصمه .. تألم الخصم وماء بشدة وعصبية .

واصلا عراكهما في حماسة وشراسة .. زادت القطط المتفرجة من تأجيج العراك بتحميس الطرفين بطرق قططية لم استوعبها .

من بعيد لمحته .. قط ضخم الجثة ..

تبدو على محياه علامات الوقار والرئاسة .. ماء عدة مرات مزمجراً .. توقف الخصمان على مضض .. نهرهما على ما فهمت من مواءه .. نكسا رأسيهما حياءً وخجلا إن كان للقطط خجل .. أشار للمتحلقين المتحمسين المؤججين للعراك بعصبية ..

تفرقوا في شتى الاتجاهات .. حان الآن وقت التأنيب :

- ما كل هذا الصراخ ؟ .. ألا تتوقف عن العراك والخصام أيها الهر الأسود .. دائما ما تثير المشاكل .

نكسا رأسيهما أكثر.. أجابت الهرة :

- يتصارعان كالعادة .. لا يحلو لهما العيش في هدوء وسكينة ووئام.

- ما سبب نزاعهما هذه المرة ؟

قالت في خجل قططي :

- البرميل كالعادة .

- البرميل ؟ .. موائكما يملأ سماء الحي .. كل هذا الصراخ والهراء من أجل برميل قمامة ؟ .. يا لكما من هرين تعسين .. تباً لكما ولسوء أدبكما.

صاح القط الرمادي :

- هو من كان المعتدي .. أنا كنتُ أدافع عن برميلي .

ماء القط ذو الفروة السوداء المخططة :

- لم أعتدي عليه .. لكنه رفض مشاركتي إياه للبرميل .

ماء القط الضخم في غضب :

- ألم نقتسم البراميل .. ونتفق أن لكل قط برميل يحظى بما فيه حتى نضمن عدم وقوع الخصام .

رد القط في غضب :

- هي قرعة وليست قسمة .
- لا فرق أيها المتحذلق .
- لكنها قرعة جائرة ..
- لجأنا للقرعة بعد أن فشلنا في الوصول لحلول توقف الشقاق بيننا .. كثرة الشقاق والخصام والصراخ تجلب اهتمام البشر .. بعدها قد يتخذون إجراءات قد تضر بالجميع ..
- لكن القرعة ظلمتني و....

قاطعه الضخم :

- هكذا هي القرعة .. لا تنصف الجميع .. لكنها تخرس كل من يلجأ لحكمها .. وتجبره على الرضوخ لأحكامها .. لم تخترع للعدل بين الخيارات بل لسد هذه الثغرة .. لو كانت الأشياء متساوية لما لجأنا للقرعة .. فهي حل مقنع مخرس لمشكلة ما بين متخاصمين .. وليست حلاً مرضياً لهم .

رد القط الأسود محتجاً :

- لكن هذا البرميل يكفي أكثر من قط .. بينما برميلي يكاد يكون خالياً من اللحم والشحم والعظام .. يبدو أن أهل ذلك البيت لا يعرفون اللحم إلا لماماً .. كل ما في برميلهم لا يسد جوعاً .. ألا ترى ما حل بجسمي ؟

تأمله القط الضخم .. يبدو أنه رقّ لحاله فقال :

- صدقت .. لقد فقدتَ رشاقتك وقوامك الذي كان مضرب المثل ..
- كل ذلك بسبب القرعة الظالمة .

تدخل الرمادي لأول مرة .. بعد أن أحس بتعاطف القط الضخم مع خصمه :

- ما ذنبي أنا لتعتدي على نصيبي في القرعة ؟ .. كلنا ارتضينا القرعة بعد أن شاع الصراع على البراميل كل ليلة .

همهم الضخم قبل أن يصدر حكمه النافذ :

- لا بأس بشيء من المشاركة على أننا سنقوم بإعادة القرعة بين فينة وأخرى حتى لا يعم الغبن أحد .

قالت الهرة مؤمنة على حكم الضخم :

- بهذا نضمن نوعاً من العدالة .

لم يتقبل ذو الفروة الرمادية الحكم فقال :

- لا بأس بشيء من المشاركة وليس كل المشاركة .

غادر الضخم ..

تشارك ثلاثتهم محتويات البرميل .. يبدو أن برميلي يحظى بما يسر القطط لتتقاتل من أجله ..

دخلت بيتي منهكاً متصدع الرأس ..

******

متاعب

بادرتني بالسؤال :

- ما الذي يحدث في الخارج ؟

ارتسمت على محياي على ما يبدو علامات الغباء فقالت :

- القطط اليوم ليست على ما يرام .. لم تتوقف عن الصراخ منذ ساعة .. هل أنت من طردها ؟

- كانت تتخاصم على محتويات برميلنا .. احتج أحدهم على نصيبه فحاول الاعتداء على قط برميلنا و.....

توقفت عن الاسترسال .. واجهتني بنظرة بلهاء متشككة .. يبدو أني بلغت في نظرها مرحلة خطيرة من المرض .. لم يعد في مقدورها التحمل أكثر من هذا .. لكنها تحملت وصمتت وتقبلت الأمر .. لا يزال في جعبتها ما تواجه به حالتي على ما يبدو .

تناولنا عشاءنا في هدوء مريب .. كانت مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب .. وجبتي المفضلة كانت سيدة المائدة .. أكلت كما لم أفعل ذلك من قبل .. كانت شهيتي مفتوحة إلى أقصى مؤشراتها ومعدلاتها .. لم نتبادل حديثاً حول أي شيء .. لم تسألني عن سبب تأخري على غير ما اعتادت .. شربتُ كأسين كبيرين مترعين من العصير ما زاد من ارتفاع معدل تخمتي .. شعرتُ بحاجة ملحة للنوم والراحة والهدوء بعد كل تلك الضوضاء السمعية .. طلبتُ منها قطعة قطن ..

لم تفارقها نظرتها المتشككة .. لكنها لبت طلبي دون ضجر .. قسمتها إلى قطعتين .. سددت بهما أذني .. قلت :

- لعل هذا حل مؤقت لمشكلتي .

لم تعلق .. قلت :

- أرجو أن تتحمليني .. اليوم كنتُ عند الطبيب .. أكد لي أن جميع وظائف سمعي طبيعية ..

- هل كنت عند الطبيب طيلة الوقت ؟

- كان لابد من ذلك ..

- هل حدثته بكل شيء ؟

كانت خائفة أن تكون إجابتي نعم .. فهذا يعني تفشياً صارخاً لسر – من المفترض – أن تحرص أكثر مني على كتمانه .. لكنها تجاهلت أنها من سرّبه ولن تتوقف الألسن عن إعادة نشره .

- كان لا بد من ذلك ..

- ماذا قال ؟

- لا شيء .. كعادة الأطباء .. قال كل شيء على ما يرام وليس هناك ما يقلق .. لكن الواقع يكذب نتيجة تلك الفحوصات .. والدليل ما حدث قبل قليل أمام برميل قمامتنا .. شكك في ما رويته له طبعاً .. حتى بعد ما شاهد الخنفساء المستنجدة .

- أي خنفساء ؟ .... لن يصدق أحد روايات من هذا النوع .

- حتى أنت ؟

- ربما أنا مجبرة على التصديق أو على الأقل حمل الأمر على محمل الجد .. هذا جزء من العلاج .
- أي علاج .

بدا الارتباك واضحاً عليها .. لكنها قالت في شجاعة :

- أخي استشار طبيباً في حالتك .. فأشار عليه بهذا الحل .
- أي طبيب استشار؟ .. من طلب منه فعل ذلك ؟

ازداد ارتباكها .. لكنها قالت :

- لديه صديق عائد من الخارج .. يقول أنه متمكن ومتفوق .
- كل العائدون من الخارج يوصفون – لدى الناس - بالتفوق ! .. هل استشار طبيب أذن ؟
- في الحقيقة هو ليس كذلك ..
- إذاً على أي نوع من الأطباء عرض حالتي ؟
- إنه طبيب .... طبيب ...

أكملت جملتها التي علقت في حلقها وخجلت من نطقها :

- طبيب نفسي أليس كذلك ؟ .

واصلت في شجاعة غير معهودة :

- نعم ... طبيب نفسي .. لن نقف مكتوفي الأيدي على كل حال .. علينا أن نطرق كل الأبواب حتى لو كان هذا الباب .. الأمر لا يتعلق بك وحدك.
- طبيب نفسي ؟

- نعم .. قال ربما ما أنت فيه بسبب ضغوطات العمل أو الحياة أو ..
- تعتقدين أني مصاب بلوثة أليس كذلك ؟
- أخي هو من ذهب دون أن يستشيرني .. لكن ...
- لكن ماذا ؟
- قال الطبيب ان الأمر بحاجة لراحة ..
- لهذا كانت تلك المائدة العامرة .....

غادرتها يملئني غاضب عارم .. أكثر من غضب ذلك القط الرمادي .. لو اتيح لي العراك الآن وأنا بهذه الحالة لكنت أشرس من أسد وأخف من فهد وأقوى من فيل .

- يا ربي إليك المشتكى .

صديقي يعتقد أن بي مسٌ شيطاني .. فيصطحبني – متبرعاً - لمشعوذ .. زوجتي تعتقد أن ما بي اضطراب نفسي فتستنجد أسرتها – خوفاً وسراً - بطبيب نفسي ..

أما أنا فقد استنجدت بقطعتي قطن .. دسستهما في أذني ورحتُ في سبات غاضب .

******

صحوة

استيقظت ..

شعرتُ بثقل في رأسي .. لا أعلم كم استغرقتُ من وقت في نومي .. لكن هذا الصداع عادة يصيبني إذا تجاوزت سبعة ساعات في النوم .. هذا يعني أني نمت كثيراً حسب هذا المؤشر..

لكن لما كل هذه العتمة ؟ ..

يفترض أن يكون النهار قد لاح نوره الساطع منذ ساعات حسب نفس المؤشر!.

ضوء باهت يتسلل من تحت باب الغرفة .. هذا يعني أن هذا الوقت ليس من ساعات النهار !

اعتادت عيني على العتمة .. لكني لم أتمكن من تمييز شيء .. تحسستُ السرير بحثاً عن زوجتي .. كان المكان خالياً منها .. تفطنتُ لشيء مهم أيضاً :

- ما هذا ؟ .. هذا ليس سريري ؟ .. أين أنا إذاً ؟

رائحة غريبة تغزو أنفي .. أذني خاليتان من قطعتي القطن .

- ما الذي يجري ؟

حاولتُ النهوض من الفراش .. عجزتُ عن ذلك .. جسمي لا يطاوعني .. شيء ما يشدني ويمنعني من النهوض .. هذه الرائحة المميزة للمستشفيات ..

صحت فزعاً .. أو ربما احتجاجاً .. لا فرق الآن .

أسرعت ممرضة بدينة بفتح الباب .. وقفت على العتبة حاجزة نور الردهة من الدخول .. بدت لي أقرب إلى وحش كاسر منها لممرضة يفترض أن تكون ملاكاً للرحمة أو شيء قريب من ذلك .. سارت بخطوات متأنية نحوي .. وقفت إلى جوار السرير .. لا يمكن اعتبار ما ارتسم على شفتيها ابتسامة .. ربما هو أفضل تعبير للاشمئزاز أو الامتعاض في أحسن تقدير .. لو كان لمصاصي الدماء ابتسامة فهذه أشبه بتلك !

وضعت كفها الثقيلة على جبهتي ..

- جيد .. زالت حرارتك أيها المشاكس ..

طرحت السؤال المعتاد :

- أين أنا ؟

لم أكن موفقاً في اختيار السؤال .. فالرائحة تدل على المكان وكذلك علامات الامتعاض المعتادة على وجه الممرضة .. كان علي طرح السؤال التالي والأهم :

- لماذا أنا هنا ؟

لم تجبني تلك البدينة عن سؤالي بل قالت موبخة :

- متى تتوقفون عن هذه العادة القاتلة ؟ ..
- أية عادة ؟

اعتقدتُ أن من حقي طرح هذا السؤال .. لكنها رأت أنه ليس من الضروري عليها إجابته .. أمسكت يدي بكل قوة .. غرست إبرة في وريدي .. تألمت .. لكن أوان الاحتجاج قد فات .. شعرت بخدريسري في عروقي ..

خرجت إلى الردهة .. معتبرة نفسها قد أدت ما عليها .. قبل أن تغلق الباب خلفها لمحت لوحة معلقة في الجدار المقابل لحجرتي مكتوب عليه بأحرف كبيرة :

"قسم الحوادث "

إذاً أنا في مستشفى الحوادث .. لكن لماذا ؟ .. كيف وصلت إلى هنا ؟ كيف .....

رحتُ في سبات عميق .

******

من جديد

فتحتُ عيناي ..

لا أدري كم مضى من الوقت بعد أن تلقيت تلك الطعنة من الممرضة البدينة .. لم تكن هي من يقف بجوار السرير هذه المرة ..

كان الوقت نهاراً .. نافذة الغرفة مشرعة .. إناء من الزهور - الصناعية - الجميلة عن يميني .. علب عصائر مختلفة تراكمت على يساري ..

كان يقف بجواري طبيب شاب .. بهي الطلعة .. يضع نظارات طبية ذات إطار شبابي .. على شفتيه ابتسامة مريحة .. أنستني ما عاملتني به تلك الممرضة البدينة .. يضع سماعته الطبية على كتفه .. لسبب ما يحلو للأطباء فعل ذلك ..

زوجتي كذلك كانت إلى جواري من جهة العصائر .. كانت تبتسم في فرح .. لم تتمكن من مقاومة الرغبة في البكاء .. كانت تتمتم بشيء ما .. ربما هو دعاء أو شكر لله .. أما الطبيب الشاب فبادر بالقول :

- الحمد لله على سلامتك .

تمتمتُ بشيء ما لعله شكراً أو شيء قريب من ذلك .. كنتُ بحاجة لمن يفسر لي ما يحدث .. اكتشفتُ أني مغلف بالجبس .. فقط يد واحدة كانت متحررة أما باقي جسدي فقد غلفه جبس ناعم ناصع البياض .. رأسي أيضا كان محاطا بخوذة جبسية .. صرت كرائد فضاء .. تساءلت :

- ما الذي حدث لي ؟

أجاب الطبيب الشاب وهو يجري فحصاً لضغط دمي على يدي المتحررة من الجبس :

- أصبتَ في حادث سير في الطريق السريع أثناء عودتك من العمل .. أنت الآن في عافية .. تحتاج لبعض الوقت حتى تتمكن من الحركة .. كان حادثاً مروعاً .. الحمد لله على سلامتك .

حمدت الله في سري وعلانيتي ..

غادر الطبيب مانحاً زوجتي خمس دقائق فقط قبل موعد الحقنة المخدرة ..

ما أن أغلق خلفه الباب حتى انهارت باكية .. أطلقت العنان لنهر من الدموع بالكاد تحملت حبسه طيلة وقوف الطبيب إلى جواري .

- الحمد لله على السلامة .
- الله يسلمك .. كيف حال الأولاد ؟
- بخير.. مشتاقين لرؤيتك .
- متى وقع الحادث وأين ؟
- من أسبوع في طريق عودتك من العمل ..
- أسبوع كامل وأنا هنا ؟
- نعم .. فقدت الوعي تماماً .. لكن الله سلم .. البارحة فقط استعدت وعيك .. يقول الطبيب أيام قليلة وتتعافى ذاكرتك وتعود كما كانت .

ازداد انهمار الدموع حتى خفتُ أن أغرق ..

حمدت الله كثيراً ..

مرت الدقائق الخمسة سريعة ..

دخلت ممرضة لتغرس في ذراعي إبرتها المنومة .. كانت رشيقة القد هذه المرة .. لهذا لم أشعر بوخز إبرتها كما حدث معي البارحة مع مصاصة الدماء البدينة تلك .. يبدو أن هناك علاقة طردية بين الإبر وبين غارسيها ..

غبت في سبات لذيذ .

اكتشاف

استفقت من نوم خالٍ من الأحلام .. وجدته جالساً أمامي .. يبتسم لي في عطف لم أعهده من طبيب من قبل .. كثيرة هي الأشياء التي تتغير في هذه الحياة دون أن نشعر بها .

كان يحمل دفتراً وقلماً .. يبدو أنه كان يدون شيئاً ما قبل استفاقتي .. أو ينوي فعل ذلك الآن .

- صباح الخير..
- صباح النور .

اغتصبتُ ابتسامة .. جاهدتُ كثيراً كي أرسمها على وجهي .. يبدو لي من ردة فعل الطبيب أني نجحتُ ..

- هل تشعر بتحسن ؟
- الحمد لله .. فقط هذه القيود تضايقني .
- عدة أيام وتتحرر من قبضتها .. كسور كثيرة تعرضت لها هذا غير الرضوض والجروح والخدوش .
- يبدو أن الحادث كان شنيعاً .

- كيف استطعت فعل ذلك .. ههه الأمر بحاجة لمهارة .
- لم أكن أعلم أن لي مثل تلك المهارة .

ارتحت لمزاحه .. سبق وأن قلت أن أشياء كثيرة تبدّلت في هذه الحياة .. لم أسمع من قبل بطبيب مرح .

- كنت تهذي في غيبوبتك .
- أرجو أن لا أكون قد قلت ،ثناءها ما يخجل .. أو كشفت أسراراً نووية .
- لم تعد الأسرار النووية تغري أحداً .
- إذا .

همس قائلاً :

- زوجتك كانت تتوقع أن تبوح بأسرار هامة .
- وهل فعلت ؟
- لقد خاب ظنها .. اكتفيت بالحديث عن ...
- عن ماذا ؟
- العناكب والصراصير والناموس والبوبريصات .

أضاف :

- هذا عدى انك كنت تصب جام سبابك على شخصٍ ما .. اعتقد انه يدعى ....

بحث في دفتره ليتأكد مما سيقوله :

- أحدهم يدعى ميم .

- إنه صديقي المقرب .. لا أجد سبباً وجيهاً لسبه أو شتمه ..
- يبدو أنه تربطك به علاقة وثيقة فلم يتوقف عن زيارتك والسؤال عنك طيلة فترة غيبوبتك .

طالبته بشيء من التوضيح .. استوى في جلسته وبدأ يقلب دفتره .. قال بعدها :

- من أين تريدني أن أبدأ ؟
- من البداية طبعاً .
- في الحقيقة لا أعلم متى بدأت تهذي في غيبوبتك .. لكن الممرضة المناوبة كتبت في ملاحظاتها عن ذلك .. قلت ربما يكون ما يقوله مهماً .. طلبتُ من كل المناوبين أن يدونوا كل ما تتفوه به أثناء غيبوبتك .. لأننا لا نعلم ما إذا كنتَ قد تعرضت لحادث عرضي أم متعمد ..
- أشكر لك اهتمامك .. هل دونت كثيراً من هذياني ؟
- أووه .. أكثر مما تتصور .. توقعت أن أجد في هذيانك ما يفيد في تحديد ذلك .. لكن ....
- لكن ماذا ؟
- كان هذيانك خليطاً من محادثات غريبة .. هل كنتَ تحلم بشيء ما أثناء غيبوبتك له علاقة بالقطط والعناكب والصراصير؟.
- أعتقدتُ أنه واقع وليس حلماً .

يبدو أنه رأى على ملامحي أسوأ علامة رآها لخيبة الأمل .

- ماذا رأيت ؟

حدثته بالتفصيل الممل عما اعتقدت أنه واقع .. اتضح لي أنه مجرد حلم في غيبوبة طويلة ..

لا أعلم ما إذا كان عليّ أن أحمد الله أن ما حدث لي حدث في حلم .

أم عليّ أن أندب حظي طويلاً على ضياع فرصة استثمار ظاهرة غريبة .

******

لم أصدق أن ذلك كان حلماً طويلاً متواصلاً ..

لو كانت الأحلام بهذه الروعة لما غادر أحد فراشه ..

كان عقلي على قناعة تامة بأن ما حدث مجرد حلم جميل .. بينما قلبي يرفض تكذيبه .. بل ظل يبحث عن مبرر يدعم به حجته ..

عشت ما تبقى من أيام في صراع بين عقلي وقلبي .. لم ترجح كفة على أخرى .. كنتُ أميل لقلبي على حساب عقلي .. بحثتُ عن شيء واحد استند إليه واتكأ عليه لأدعم به كفة قلبي ..لكن عقلي كان يسخر مني في كل مرة أفشل فيها .

بحثتُ في أركان غرفتي في المستشفى عن نسيج لبيت عنكبوت أو صرصار في دورة المياه .. كانت نظيفةً خاوية على عروشها ..

أما الناموس والبوبريص فلم أبحث عنهما لاستحالة تواجدهما في هذه البيئة .. فرائحة المستشفيات لا تطيقها ولا يمكنها أن تتأقلم معها .

******

غادرت إلى البيت بعد تحسن حالتي .. تخلصتُ من بعض الجبس .. صار بإمكاني أن أتحرك ولو قليلاً ..

في البيت بحثتُ كثيراً عن بيت ذلك العنكبوت ..

كان في أقصى غرفة النوم .. وقفتُ كثيراً تحت الركن .. اصخت سمعي دون جدوى .. لوحت له مهدداً بمكنسة عله يستنجد .. دون فائدة ..

في دورة المياه حدث نفس الشيء ..

لا أشعار للصراصير.. على الرغم من أنها تتسابق للفرار كلما دخلت لقضاء حاجة .. لكن دون أناشيد ولا غزل ولا حتى هجاء .. فقط تسابق للفرار خشية القضاء عليها .

تسللت إلى المخزن في غفلة من زوجتي علي أجد فيه تلك العائلة .. لم أكن لأفعلها في حضور زوجتي .. وقفتُ لدقائق طويلة .. بحثاً عن بوبريص فاقد لذنبه .. طال انتظاري دون ظهور لهذه الملة التي تعشق إفزاع النساء .. لكنها تجبن عن الظهور أمام الرجال .. هذا وحده أمر بحاجة للدراسة والمزيد من البحث .

الشك يقتلني ويحاصرني .. أبحث عن دليل واحد يدعم قلبي دون جدوى .. لا زال عقلي يقهقه مرحاً وسخرية مني ومن قلبي .

لكني واصلت البحث دون كلل ..

وضعت فرضيات عديدة لتبرير فشلي حتى الآن في الوصول على دليل يدعم حلمي ويحيله إلى واقع منها :

- قد يكون بيت العنكبوت خالياً من سكانه السابقين بعد أن نجحت أنثى العنكبوت في اصطياد زوجها المغرور.

- أما البوبريص فقد يكون غادرولم يعد ليتخذ من مخزني بيتي موطناً بعد أن عقدنا هدنة اشترطتً عليه فيها أن يترك مخزني وزوجتي وشأنها.
- أما بالنسبة للصرصار العاشق فقد يكون قد أذعن لرغبة أنثاه وغادرا إلى مكان أكثر أمناً وشاعرية لأنثاه المذعورة .

هذه المبررات وحدها بثت في قلبي أمل تمنيت أن يتحقق .

لكن متى حدث ذلك ؟ .. هذا السؤال وحده كان يقف عائقاً أمام أحلامي .. تباً له !

لكني لم استسلم .

ما أن تمكنت من السير والخروج من البيت حتى وقفتُ أمام برميل القمامة المجاور لبيتي بحثاً عن ذلك الهر الرمادي أو غريمه الأسود .. كل تلك الكائنات البائسة تظافرت ضدي .. لتقف في صف عقلي ضد ما يشتهيه قلبي .

لا وجود لما يؤكد حدوث تلك الظاهرة .. على الرغم من وجود ذلك القط الرمادي وغريمه الأسود .. لكنهما لم يتبادلا في وجودي أي حديث على الرغم من الوقت الطويل الذي انفقته في مراقبتهما .

- تباً لكما من هرين .

اقتنعت على مضض وبعد وقتٍ طويل من الانتظار أنه كان مجرد حلم طويل لذيذ عشته بتفاصيل دقيقة في غيبوبة لذيذة .

- يا له من حلم .

أخيراً قررتُ تدوين تفاصيل ما جرى لي .. ربما الطبيب الشاب هو من أوحى لي بالفكرة .. فتدوينه لما كنتُ أهذي به في غيبوبتي ساعدني كثيراً في استرجاع تفاصيل كثيرة لما حدث لي .

شرعت في ذلك فوراً ..

ها هي الأوراق مكدسة أمامي تحمل أسطرها كل ما جرى لي .. لا أعلم السبب الذي دفعني لذلك .. ربما خشيتي من ضياع بعض التفاصيل قد احتاجها ذات يوم .

******

خاتمة

زرته في بيته ..

كان ذلك بعد أن وصلني خبر تعرضه لحادث سير .. لم يكن حادثاً بسيطاً .. وصفه من نقل لي الخبر:

- نجى منه بأعجوبة ..

هذا ما جعلني أسارع في تقديم واجب زيارته والوقوف على حاله .. لم اكتفِ بالسؤال عنه بالهاتف .. فهو ليس مجرد صديق طفولة ولا زميل دراسة فحسب .. بل تربطني به أواصر أكثر متانة .

استقبلني بترحاب مبالغ فيه .. كان قد استعاد عافيته إلى حد ما .. لكني لاحظت عليه ما أثار استغرابي .. لم يكن طبيعياً ما رأيته ..

لم يكن وضع رأسه كما عرفته وعهدته .. كان يميل بزاوية ما .. كان كمن يتصنت أو يتسمع على من يهمس شيئا في أذنه .. أعتقدتُ أن ذلك من تأثير الحادث وتوابعه ..

سألته عن ذلك..

في البداية حاول التهرب والتنصل من الإجابة .. لكنه قرر أن لا يفعل .. طالما اعتبرني – في زمن صداقتنا الأول - بئراً يمكن أن يطمر فيها أسراره .. فقرر الإفصاح عن سبب ما اعتراه من تغيير.

سرد على مسامعي قصته الغريبة .. كانت أعجب قصة أسمعها في حياتي ..

- هذا كل ما حدث .
- لماذا تصر على رفض كونه حلم .
- لأنه ببساطة حلم لذيذ .. أتمنى أن يكون قد وقع ..
- لكنه لم يقع .
- هذا ما يقوله الطبيب .
- وأنت ماذا تقول .

همس لي على الرغم أننا وحدنا في المكان :

- أحاول أن أثبت إنه ليس كما يريد الطبيب إقناعي .
- كيف يمكنك فعل ذلك ؟

بعد دقيقة تفكير قال :

- أحاول جهدي .
- منذ متى وأنت تحاول يا صديقي ؟
- مذ خرجت من المستشفى .
- مذ شهرين تقريباً ؟
- نعم
- هل هناك بادرة أمل ؟

نظر لي مستجدياً أن لا أكون معول هدم لحلمه .. قلتُ :

- إنك تهدر وقتك .. ربما قد يؤثر هذا على عقلك كما أثر على صحتك .

قال في عناد :

- لم يؤثر على صحتي ..
- أرى الآن عكس ذلك ..

سألته :

- ما الذي ستجنيه من وراء إثبات ذلك للآخرين ؟

لم يتوقع سؤالي .. تلعثم في رد غير مقنع .. قلت :

- لكل كائن طاقة محدودة .. لو تجاوزها لما استطاع التكيف معها ولأضحت حياته جحيماً لا يطاق .. هذه سنن الله في الكون .
- هناك دائماً استثناءات .
- هذه الاستثناءات يعدها البعض معجزات وهذا خاص بالأنبياء .. والبعض يصفها بالكرامات وهي خاصة بالأولياء .. والبعض يعتبرها طفرات لا يقاس عليه .. هل ترى أنك من هذه الاستثناءات؟
- لم لا .
- لو كنتُ مكانك لسعيت لإثبات العكس لأتمكن من العيش في هناء.

لم يكن راغباً في تصديق غير روايته .. كان يبحث عن المستحيل .. لكن من يقنعه بهذا ؟..

حاولت وسعي لكنه يأبى .. كان عنيداً كما عهدته وعرفته من قبل .

قبل أن أغادره تناول ملفاً يحوي أوراقاً .. نظر لي مطولاً كأنه يبحث عن شيء في وجهي .. عرفت فيما بعد – بعد أن قرأت الملف - أنه كان

يبحث عن الثقة .. الثقة التي فقدها من أقرب الناس إليه كان يتمنى أن لا أخذله بدوري كصديق قديم .

غادرته على وعد بزيارته مجدداً .. وعد لم أتمكن من الوفاء به .. لأسباب غير مقنعة لي على الأقل .. ربما تكون كذلك لآخرين .. لكني اعترف الآن بفداحة ذلك .

كان الملف يحوي سرداً لما جرى لصديق بالتفصيل الممل .. استمتعت بقراءته أكثر من مرة .. لا أنكر أن دموعي خانتني في كل مرة .

لم تعد حياة صديقي كما كانت عليه قبل الحادث .. رثيتُ لما آلت إليه حاله .. بعد أشهر فارقته زوجته .. لم تعد تطيق العيش مع نصف مخبول ..

صار يطارد القطط في مكبات القمامة .. يداعب العناكب والصراصير والبوبريصات ..

تطورت حالته لدرجة لا تطاق ولا يمكن السكوت عليها .. انتهى به الأمر لقضاء ما تبقى له من أشهر في مستشفى الأمراض العقلية .. إنها نهاية متوقعة على كل حال .. كان يؤمن حتى آخر يوم في حياته بأن ما وقع له ليس مجرد حلم .. لكنه انفق ما تبقى من عقله في محاولة إثبات ذلك .. فقد عقله ولم يقنع أحداً حتى أقرب اصدقائه .

هذا كل ما حدث لصديقي .

بعد مضي سنوات تعثرت بالملف من جديد .. كان ذلك في إحدى حملات النظافة وإعادة ترتيب مكتبتي ..

قرأته من جديد .. بكيتُ مرة أخرى على صديقي ..

لكن هذه المرة قررتُ أمراً .. رأيت فيه بعض العزاء لصداقتنا .. ووفاء لعهد قطعته عليه ولم أتمكن من الوفاء به .

نشرتُ قصته كما كتبها .. أصلحتُ ما شابها من خلل في البناء وأعدتُ ترتيب بعض أحداثها حتى تصبح محكمة مقبولة .. اخترت لها عنوان رأيت أنه مناسب لأحداثها :

ما وراء الواقع .

ها هي بين يديك الآن .

ويمكنك الحكم على صديقي بالإجابة على السؤال الآتي :

هل ما حدث له كان حلماً طويلاً في غيبوبة بسبب تعرضه لحادث سير أم أن ما جرى له هو حدث واقعي لسبب يجهله صديقي وربما هو ما تسبب له في ذلك الحادث الذي دخل بسببه في غيبوبة طويلة ؟

رحمك الله يا صديقي .

النهاية

طرابلس – غدامس
أواسط ذي القعدة
أغسطس ٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

ابراهيم عبدالجليل الإمام

من مواليد ١٢ من شهر ابريل عام ١٩٧٠ ميلادية بمدينة غدامس - ليبيا

حامل دبلوم كلية تقنية الطيران المدني والأرصاد الجوية .

كاتب وقاص وروائي وباحث تاريخي .

نشرتُ انتاجي القصصي بالعديد من الصحف المحلية والعربية

في صحيفة العرب اللندنية الشهيرة كانت البداية ..

صحف ليبية عديدة مثل (الحقيقة .. المختار.. فسانيا .. الكلمة الحرة .. توفرضا .. غدامس .. الأسبوع .. الأيام .. اصحاب الكلم .. الناس)

المواقع الالكترونية : ليبية وعربية وصفحات التواصل الاجتماعي .

نشرت العديد من الأعمال القصصية والروائية منها :

١- قطرات من ذهب ... قصص واساطير

٢- آلام آمال ... مواقف واحداث

٣- جمهورية العسل .. قصص

٤- سلطان يوم الماء ... قصة مصورة ادب الطفل .

٥- لها طلع نضيد .. قصة مصورة أدب الطفل

٦- تحرير غسوف .. قصة مصورة أدب الطفل

٧- الشاغة .. رواية قصيرة

٨- آيت انج ... قصة

٩- آيت أدا ... رواية

١٠- رسالة من الرجل الميت ... رواية

١١- أمم أمثالنا .. مجموعة قصصية
١٢- بوابة الصحراء.. مجموعة قصصية
١٣- أشلّيد .. رواية قصيرة .

مخطوطات :
١- كنزالاسلاف .. رواية
٢- حجرغدامس .. رواية
٣- لحون وشجون .. رواية
٤- نبش في ذاكرة الماضي .. رواية
٥- يوميات واحد محظوظ .. رواية
٦- مطبات .. ادب ساخر
٧- عندما لا تموء القصص .. رواية
٨- أطفال حول غسوف مسرحية للأطفال
٩- القادووس .. مسرحية
١٠- سهرة مع فرعون ..رواية .

رسالتنا:

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017